شرح اسمه تعالى: الْحَقّ

ومعه مختصر عن:

الرَّبّ - الْمَلِك - الْمَوْلَى - الْمُبِين - الإِلَـٰه

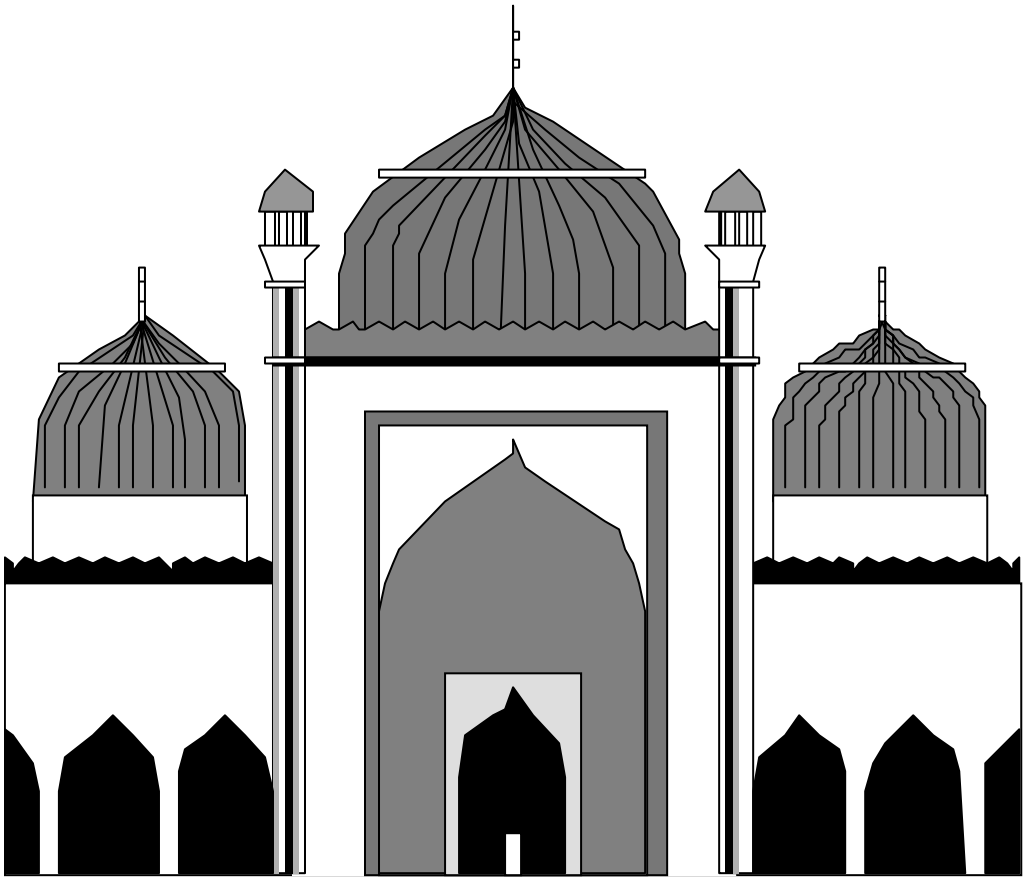

فضيلة الشيخ

فوزي السعيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الْحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا. مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ، فَلَا هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـٰه إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وعلى آله وصحبه وَسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا. ﴿**يا أيها الَّذينَ آمَنُوا اتقُوا اللهَ حَق تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُن إلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾[1]. ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾[2]. ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ٧٠ يُصْلِحْ لَكُم أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ. وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً**﴾[3].

أما بعد: فإن أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ، وبعد:

فإني رأيت أنَّ اسمه تعالى: (الْحَقّ) لم يُخْدم كما ينبغي فبذلت جهدي مستعينًا بربي، لأدلي بدلوي في تلك الخدمة، فوجدتُ أن مَرَدَّ حَقِّيَّته تعالى إلى تفرده بصفات كماله، فعزمت على البحث في الآيات التي وردَ بها (الْحَقّ) ووجدتها عشر آيات، فيها الرَّبَّ الْحَقّ مرة٤، الْمَلِكُ الْحَقّ مرتين٥، مَوْلَاهُمُ الْحَقّ مرتين٦، الإِلَٰهِ الْحَقّ خمس مرات٧، ووجدتُ فيها من البراهين الدَّالة على كمالات اللهِ تعالى الـمُتَّزِهَةِ عن النَّقْصِ والـمِثال ما لا يتردد عاقل في قبولها مع تذكُر ما بفطرته والإقرار بأنه

---

١ آل عمران: ١٠٢.

٢ النساء: ١.

٣ الأحزاب: ٧٠-٧١.

٤ يونس: ٣٢.

٥ طه: ١١٤، المؤمنون: ١١٦.

٦ الأنعام: ٦٢، يونس: ٣٠.

٧ الحج: ٦، لقمان: ٣٠، النور: ٢٥، الحج:٦٢، الكهف: ٤٤.

الرَّبَّ الْحَقّ والْمَلِكُ الْحَقّ والمولى الْحَقّ والإِلَـٰه الْحَقّ، ومن ثمَّ بذلتُ جُهدُ الـمُقلِّ في كشف وتوضيح الأدلَّة التي جائت بها الآيات العشر، مما تَطَلّب البحثَ في علوم الأَجِنَّة وفي علوم الفَلَكِ وفي إنْبات الْأَرْضَ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، وفي غير ذلك من البراهين مما أعطي حجمًا أكبر للكتاب حتى يتحقق الهدف.

قال تعالى ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا...** ﴾[٨] فبداية التوحيد الصحيح هو فهم معاني أسمائه الحسنى ومعرفة دعائه بها.

و لم أُقَسِّم الكتاب إلى أبواب وفصول، بل جعلت الآيات العشر، كعشرة فصول.

وإني اسألُ الله تعالى أن يجعله كتابًا مُباركًا علينا وعلى الأمِّة جميعًا. صَلَّى اللَّهُ على مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

٨ الأعراف: ١٨٠.

أقتصر كثيرٌ من شُرَّاح الأسماء الحسنى في بيان معنى اسمه تعالى: الْحَقّ، على أَنَّه: المتحقق كونه ووجوده، أو: الموجود الكائن، أو: الموجود الثابت، أو: ما لا يسع إنكاره ويلزم ثبوته والاعتراف به، أو: الموجود حقيقة، والأقتصار على ذلك خطأ سأترك بيانه تفصيلاً لشَيْخ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّة بعد أن أوضح المعاني اللُّغوية التي سأطيل النفس فيها للضرورة.

المعاني اللُّغوية: قال ابن فارس في مقاييسه: الحاء والقاف: أصلٌ واحد، وهو يدل على إحكام الشيء وصحّته. فالحقُّ نقيضُ الباطل، ثم يرجع كلُّ فرعٍ إليه بجَوْدة الاستخراج وحُسْن التّلفيق.

الأَحَقُّ من الخيْل: الذي لا يعْرَق؛ لصلابته وقوّته وإحكامه.

وفي اللسان: أِحْنَقّ الفَرَس إذا ضَمُر (قلتُ: فلا يحمل الشحمَ والكَرِش؛ فهو أقوى وأسرع).

ثوبٌ محقق: إذا كان مُحْكمَ النَّسج (قلتُ: الفرز الأول الخالي من العيوب).

طَعْنَةٌ مَحَقَّقَةٌ: إذا وصلت إلى الجوف لشدتها، وفي اللسان: لا زَيْغَ فِيها وقد نَفَذَتْ (قلتُ: فهي طعنةٌ مُحكمة صحيحة أصابت الهدف).

الحِقَّةُ من أولاد الإبل: ما استحقَّ أن يُحمَل عليه. (قلتُ: تمت الصفات والقوة المؤهلة لاستعماله).

وفي اللسان: الحِقُّ من أولاد الإبل الذي بلغ أن يُرْكبَ ويُحمَلَ عليه ويَضْرِب يعني أن يضرب الناقةَ.

المقاتل المحتقُّ: الذي يُقتَل مكانَه (قلتُ: لقوته وشجاعته وبراءته من الجبن والتردّد).

وفي اللسان: في حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه أنه خرج في الْهَاجِرَةِ إِلَى الْمَسْجِدِ فقيل له: ما أخرجك؟ قَالَ: مَا أَخْرَجَنِي إِلَّا مَا أَجِدُ مِنْ حَاقِّ الْجُوعِ[٩]. أي صادِقه وشدَّته.

قال أبو سليمان الخطّابي[١٠]: العَرَبُ تَقُولُ: إن فُلَانَاً الرجُلُ حَق الرجُلِ، والشجَاعُ حَق الشُّجَاعِ، وحاقَّ الشجَاعِ، وَحَاقَّةَ الشجَاعِ، إِذَا أَثْبَتُوا لَهُ الشجَاعَةَ وَحَقِيقَتَهَا.

---

٩ وقد ضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الترغيب والترغيب، وفي التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان.

١٠ في كتابه: شأن الدعاء.

وقال عمرو بن مُرَّة: فُلانٌ سَيِّدٌ حَقًّا، وَفِي الْقَوْمِ سَادَةٌ، وَفُلانٌ تَاجِرٌ حَقًّا، وَفِي الْقَوْمِ تجَّارٌ، وَفُلانٌ شَاعِرٌ حَقًّا، وَفِي الْقَوْمِ شُعَرَاءُ[١١].

قلتُ: فعادت لفظة الحَقّ في جميع الأمثلةِ السَّابقة إلى أكتمال الصِّفَات المَطْلوبة في الشيء ليكون مقصودًا نافعًا على الوجه الأكمل (وذلك هو الإحكام) بغير نقصٍ ولا عيبٍ (وذلك هو الصحة) كما في (حَق الرجُلِ – حَق السَيِّد – حَق التَاجِر – حَق الشُّجَاعِ – حق الشَاعِر – الأحقّ من الخيل – الحِقُّ من الإبل – ثوبٌ محقق – طَعْنَةٌ محَقَقَةٌ – مقاتل محتقٌّ – حاقٌّ الجُوع).

وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ: هو الربُّ الحق لأن له صفات الرُّبوبية كاملة ومكتمَلة (الخلق–الرِّزْق–العلم–الحكمة–القُدرة–الحفظ–الإقاتة ..... إلخ) وفي كل هذا هو مترهٌ عن النقص والعيب والمثيل. وكذلك هو الْمَلِكُ الْحَقّ وهو الْمَوْلَى الْحَقّ كما سيأتي، ويجمع ذلك كُلَّه أنه هو الإِلَـٰه الْحَقُّ الذي تأْلَهُه القلوب، والكائنات، بكمال الحُب والتعظيم والخوف والرجاء والإجلال والإكرام، لما له من الأسماء الحسنى وصفات الكمال ونعوت الجلال.

وسيأتي بيان هذا شافيًا بإذن الله، في ذكر الآيات العشر التي فيها ذكر اسمه تعالى: الْحَقّ.

والباطل: على النقيض من ذلك حيث تنتفي الصفاتُ المطلوبةُ في الشيءِ ليكون نافعًا مقصودًا، فتنتفي فائدته ومنفعته فيكون كعدمِه، والمعدوم باطل.

وهذه المعاني التي تضمنتها لفظة الْحَقّ جاء بها الْقُرْآنَ الْعَظِيم كما في قوله ﴿**أولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا**﴾[١٢] وقوله ﴿**أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا**﴾[١٣].

قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ*الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ*أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾[١٤].

---

١١ سيأتي في تفسير ابْنُ كَثِير.

١٢ الأنفال: ٤.

١٣ النساء: ١٥١.

قال ابْنُ كَثِير: وهذه صفة المؤمن حق المؤمن، الذي إذا ذُكر الله وَجِلَ قلبُه، أي: خاف منه، ففعل أوامَره، وترك زواجره. قال السُّدِّي: هو الرجل يريد أن يَظْلِم -أو قال: يهم بمعصية- فيُقال له: اتق الله فَيَجِل قلبه.

﴿**وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك، وحده لا شريك له، لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وهو سَرِيعُ الْحِسَابِ. ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا**﴾ أي: المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حقّ الإيمان.

وقال عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ: إِنَّمَا أُنْزِلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانِ الْعَرَبِ، كَقَوْلِكَ: فُلانٌ سَيِّدٌ حَقًّا، وَفِي الْقَوْمِ سَادَةٌ، وَفُلانٌ تَاجِرٌ حَقًّا، وَفِي الْقَوْمِ تجَّارٌ، وَفُلانٌ شَاعِرٌ حَقًّا، وَفِي الْقَوْمِ شُعَرَاءُ.أ.هـ[١٥]

قلتُ: فعاد الأمر في حقّ الإيمان إلى صفات وأفعال مُعينة من اتصف وقام بها كان مؤمنًا حقًا.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا**﴾[١٦].

قال ابْنُ كَثِير: والمقصود أن من كفر بنبيّ من الأنبياء، فقد كَفَر بسائر الأنبياء، فإن الإيمان واجب بكل نبيّ بعثه الله إلى أهل الأرض، فمن ردَّ نبوته للحسد أو العصبية أو التشهي تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيمانًا شرعيًّا، إنما هو عن غرضٌ وهوىً وعصبية. وقال في ﴿**أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا**﴾ كفرهم مُحقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به؛ لأنه ليس شرعيًّا، إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسولَ الله لآمنوا بنظيره، وبمن هو أوضح دليلاً وأقوى برهانًا منه، لو نظروا حق النظر في نبوته. أ.هـ

قال الآلوسي: أولئك هُمُ الكافرون الكاملون في الكفر لا عبرة بما يدَّعونه ويسمُّونه إيماناً أصلاً.

---

١٤ الأنفال: ٢:٤.

١٥ تفسير ابْنُ كَثِير باختصار وتصرف يسير.

١٦ النساء: ١٥٠-١٥١.

قال صاحب التحرير والتنوير -بتصرف يسير-: أفاد تعريف جزأيّ الجملة والإتيان بضمير الفصل ﴿**هُمُ**﴾ تأكيد قصر صفة الكفر عليهم، وهذا يفيد تنزيلَ كفرِ غيرِهم في جانبِ كفرهم منزلةَ العدمِ، كقوله تعالى في المنافقين ﴿**هُمُ الْعَدُوُّ**﴾[١٧]. أ.هـ

قلتُ: هذا الوعيد الشديد لمن يزعم الإيمان ببعض الرسل ويكفر ببعض، يُشبه ما جاء فيمن يؤمن ببعض الكتابِ ويكفر ببعض. ﴿**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ**﴾[١٨] فذلك من أشدّ ما يُغضب الله ويستوجبُ أشدَّ العذابِ، كمن أتى بشعائر القرآن مثل الصّلاة والصيام والزكاة والحج والعمرة وما شابه، وترك شرائعه فيما يتعلق بالهوية والدولة الإسلامية، وعادى من يُناضل من أجلها.

قال إسحاق بن راهوية: أجمع المسلمون على أن من سبَّ الله، أو سبَّ رسولَه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ، أو دفع شيئاً مما أنزل الله عزَّ وجلَّ، أو قتل نبيّاً من أنبياء الله، أَنَّه كافرٌ بذلك وإِنْ كان مُقِرّاً بكلِّ ما أنزل الله.[١٩]

فمن رفض الهوية الإسْلامية فقد دفع كثيرًا مما أنزل الله، ألا فليعلم أنه مردودٌ إلى أشدّ العذاب ما لم يتب.

أتينا إلى كلام شَيْخ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّة: قال: فَإِنَّ الْبَاطِلَ ضِدُّ الْحَقِّ ؛ وَاَللَّهُ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ. وَالْحَقُّ لَهُ مَعْنَيَانِ:

أَحَدُهُمَا: الْمَوْجُودُ الثَّابِتُ. وَالثَّانِي: الْمَقْصُودُ النَّافِعُ كَقَوْلِ النَّبِيِّ: ﴿الْوِتْرُ حَقٌّ﴾[٢٠].

وَالْبَاطِلُ نَوْعَانِ أَيْضًا: أَحَدُهُمَا: الْمَعْدُومُ (وَإِذَا كَانَ مَعْدُومًا كَانَ اعْتِقَادُ وُجُودِهِ وَالْخَبَرُ عَنْ وُجُودِهِ بَاطِلًا؛ لِأَنَّ الِاعْتِقَادَ وَالْخَبَرَ تَابِعٌ لِلْمُعْتَقَدِ الْمُخْبَرِ عَنْهُ يَصِحُّ بِصِحَّتِهِ، وَيَبْطُلُ بِبُطْلَانِهِ؛ فَإِذَا كَانَ الْمُعْتَقَدُ الْمُخْبَرُ عَنْهُ بَاطِلًا كَانَ الِاعْتِقَادُ وَالْخَبَرُ كَذَلِكَ؛ وَهُوَ الْكَذِبُ.

---

١٧ المنافقون: ٤.

١٨ البقرة: ٨٥.

١٩ الصَّارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية.

٢٠ رواه أحمد والنسائي وابن حبان والحاكم وغيرهم عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧١٤٧).

الثَّانِي: مَا لَيْسَ بِنَافِعٍ وَلَا مُفِيدٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً**﴾[٢١] وَكَقَوْلِ النَّبِيِّ: ﴿كُلُّ لَهْوٍ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ فَهُوَ بَاطِلٌ إِلَّا رَمْيَهُ بِقَوْسِهِ، وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ، وَمُلَاعَبَتَهُ امْرَأَتَهُ فَإِنَّهُنَّ مِنْ الْحَقِّ﴾[٢٢] وَقَوْلِهِ عَنْ عُمَرَ : إنَّ هَذَا رَجُلٌ لَا يُحِبُّ الْبَاطِلَ[٢٣]. وَمَا لَا مَنْفَعَةَ فِيهِ : فَالْأَمْرُ بِهِ بَاطِلٌ، وَقَصْدُهُ وَعَمَلُهُ بَاطِلٌ؛ إذْ الْعَمَلُ بِهِ وَالْقَصْدُ إلَيْهِ وَالْأَمْرُ بِهِ بَاطِلٌ.[٢٤]

وقال: وَذَلِكَ أَنَّهُ إذَا كَانَ الْبَاطِلُ فِي الْأَصْلِ هُوَ الْعَدَمُ، وَالْعَدَمُ هُوَ الْمَنْفِيُّ، فَالشَّيْءُ يُنْفَى:

لِانْتِفَاءِ وُجُودِهِ فِي الْجُمْلَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ*وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾[٢٥] وَ ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[٢٦] وَقَوْلِهِ ﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـهٍ**﴾[٢٧] وَقَوْلِهِ ﴿**لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾[٢٨] وَقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا نَبِيَّ بَعْدِي﴾[٢٩].

وَقَدْ يُنْفَى لِانْتِفَاءِ فَائِدَتِهِ وَمَقْصُودِهِ وَخَاصَّتِهِ الَّتِي هُوَ بِهَا هُوَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ؛ فَإِنَّ مَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَالْبَاطِلُ مَعْدُومٌ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا سُئِلَ عَنْ الْكُهَّانِ: ﴿لَيْسُوا بِشَيْءٍ﴾[٣٠] وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ**﴾[٣١]. وَقَدْ يُنْفَى الشَّيْءُ لِانْتِفَاءِ كَمَالِهِ وَتَمَامِهِ، إمَّا مُطْلَقًا وَإِمَّا بِالنِّسْبَةِ إلَى غَيْرِهِ كَقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ

---

٢١ سورة ص: ٢٧.

٢٢ قال الحافظ في الفتح: أخرجه أحمد والأربعة وصححه ابن خزيمة والحاكم.

٢٣ قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد والطبراني بنحوه بأسانيد ورجال أحدها عند أحمد رجال الصحيح.

٢٤ مجموع الفتاوى ج٢ صـ ٤١٥-٤١٦ باختصار.

٢٥ الإخلاص: ٣-٤.

٢٦ الشورى: ١١.

٢٧ المؤمنون: ٩١.

٢٨ الصافات: ٣٥، محمد: ١٩.

٢٩ متفقٌ عليه.

٣٠ متفقٌ عليه.

٣١ المائدة: ٦٨.

وَالتَّمْرَتَانِ، وَإِنَّمَا الْمِسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ وَلَا يُتَفَطَّنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾[٣٢].

وَنَحْوَ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي الْمُفْلِسِ[٣٣] وَالرَّقُوبِ[٣٤]. وَنَظَائِرُ كُلٍّ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ كَثِيرَةٌ.[٣٥]

وقال: فَإِنَّ الشَّيْءَ لَهُ مَرْتَبَتَانِ: مَرْتَبَةٌ بِاعْتِبَارِ ذَاتِهِ؛ فَهُوَ إمَّا مَوْجُودٌ فَيَكُونُ حَقًّا؛ وَإِمَّا مَعْدُومٌ فَيَكُونُ بَاطِلًا. وَمَرْتَبَةٌ بِاعْتِبَارِ وُجُودِهِ فِي الْأَذْهَانِ وَاللِّسَانِ وَالْبَنَانِ، وَهُوَ الْعِلْمُ وَالْقَوْلُ وَالْكِتَابُ؛ فَالِاعْتِقَادُ وَالْخَبَرُ وَالْكِتَابَةُ أُمُورٌ تَابِعَةٌ لِلشَّيْءِ، فَإِنْ كَانَتْ مُطَابِقَةً مُوَافِقَةً كَانَتْ حَقًّا وَإِلَّا كَانَتْ بَاطِلًا. فَإِذَا أَخْبَرْنَا عَنْ الْحَقِّ الْمَوْجُودِ أَنَّهُ حَقٌّ مَوْجُودٌ، وَعَنْ الْبَاطِلِ الْمَعْدُومِ أَنَّهُ بَاطِلٌ مَعْدُومٌ: كَانَ الْخَبَرُ وَالِاعْتِقَادُ حَقًّا؛ وَإِنْ كَانَ بِالْعَكْسِ كَانَ بَاطِلًا؛ وَإِنْ كَانَ الْخَبَرُ وَالِاعْتِقَادُ أَمْرًا مَوْجُودًا. فَكَوْنُهُ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا بِاعْتِبَارِ حَقِيقَتِهِ الْمُخْبَرِ عَنْهَا لَا بِاعْتِبَارِ نَفْسِهِ. وَلَا يَجُوزُ إطْلَاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حَقٌّ لِمُجَرَّدِ كَوْنِهِ مَوْجُودًا إلَّا بِقَرِينَةٍ تُبَيِّنُ الْمُرَادَ. وَهَكَذَا الْعَمَلُ وَالْقَصْدُ وَالْأَمْرُ إنَّمَا هُوَ حَقٌّ بِاعْتِبَارِ حَقِيقَتِهِ الْمَقْصُودَةِ، فَإِنْ حَصَلَتْ وَكَانَتْ نَافِعَةً: كَانَ حَقًّا، وَإِنْ لَمْ تَحْصُلْ أَوْ حَصَلَ مَا لَا مَنْفَعَةَ فِيهِ: كَانَ بَاطِلًا. وَبِهَذَيْنِ الِاعْتِبَارَيْنِ يَصِيرُ فِي الْوُجُودِ مَا هُوَ مِنْ الْبَاطِلِ؛ كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿**أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ**﴾[٣٦]. شَبَّهَ مَا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ عَلَى الْقُلُوبِ مِنْ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ فَيَخْتَلِطُ بِالشُّبُهَاتِ وَالْأَهْوَاءِ الْمُغْوِيَةِ: بِالْمَطَرِ الَّذِي يَحْتَمِلُ سَيْلُهُ الزَّبَدَ، وَبِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ وَنَحْوِهِ إذَا أُذِيبَ بِالنَّارِ فَاحْتَمَلَ الزَّبَدَ فَقَذَفَهُ بَعِيدًا عَنْ الْقَلْبِ، وَجَعَلَ ذَلِكَ الزَّبَدَ هُوَ مَثَلُ ذَلِكَ الْبَاطِلِ الَّذِي لَا مَنْفَعَةَ فِيهِ؛ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ مِنْ الْمَاءِ وَالْمَعَادِنِ فَهُوَ مِثْلُ الْحَقِّ النَّافِعِ فَيَسْتَقِرُّ وَيَبْقَى فِي الْقَلْبِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْله تَعَالَى ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ**

---

٣٢ رواه مسلم واللفظ لاحمد.

٣٣ متفقٌ عليه. وفيه {إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ}.

٣٤ رواه مسلم. وفيه {وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ الَّذِي لَمْ يُقَدِّمْ مِنْ وَلَدِهِ شَيْئًا}.

٣٥ مجموع الفتاوى ج٢ صـ ٤٢٣-٤٢٤.

٣٦ الرعد: ١٧.

اللهَّ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)[٣٧] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ**﴾[٣٨]. فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ سَبَبَ إِضْلَالِ أَعْمَالِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا حَتَّى لَمْ تَنْفَعْهُمْ، وَأَنَّ أَعْمَالَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا نَفَعَتْهُمْ فَكَفَّرَتْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ اللَّهُ بَالَهُمْ: أَنَّ هَؤُلَاءِ اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ قَوْلًا وَعَمَلًا، اعْتِقَادًا وَاقْتِصَادًا خَبَرًا وَأَمْرًا. وَهَؤُلَاءِ اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ، وَلَمْ يَتَّبِعُوا مَا هُوَ مِنْ غَيْرِ رَبِّهِمْ وَإِنْ كَانَ حَقًّا مِنْ وَجْهٍ. أ.هـ [٣٩]

قلتُ: وهذا كلام تُدرك نفاسته إذا علمنا أن أقوامًا (من الاتحادية وغيرهم) قَدْ ضَلُّواْ ضَلَالاً بَعِيدًا لما رَأَوْا أَنَّ الْحَقَّ هُوَ الْمَوْجُودُ، فَكُلُّ مَوْجُودٍ حَقٌّ، والباطلُ هو العدم. قَالُوا: مَا فِي الْعَالَمِ بَاطِلٌ؛ إِذْ لَيْسَ فِي الْعَالَمِ عَدَمٌ، ثم جعلوا هذا ذريعةً إِلَى أَنَّ ذَلِكَ الْمَوْجُودَ هُوَ عَيْنُ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْحَقُّ، وَلَم يُمَيِّزُوا بَيْنَ الْحَقِّ الْخَالِقِ وَالْحَقِّ الْمَخْلُوقِ، وقالوا ﴿أَلا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلا اللهَ بَاطِلُ﴾ وَالْبَاطِلُ هُوَ الْمَعْدُومُ، فَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ مَعْدُومٌ، وَالْمَوْجُودُ لَيْسَ بِمَعْدُومٍ. فَالْمَوْجُودُ لَيْسَ فِيهِ سَوِيٌّ وَإِنَّمَا السَّوِيُّ هُوَ الْعَدَمُ. حتى نَظر بعضهم إلى نفسه وإلى جُبَّتِه قائلاً: لَيْسَ فِي الْجُبَّةِ إِلَّا اللَّهُ، وهو يعلم أن بطنه تحمل العذَرَّة والبولة، تعالى الله عما يقول الظالمون الجاهلون عُلُوًّا كَبِيرًا، فإذا كان النصارى قَالُواْ ﴿**إِنَّ اللهَّ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ**﴾[٤٠] فإن هؤلاء قالوا: إن الله هو كل الموجودات -سبحان الله العظيم-.

ولقد تصدى شَيْخ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّة في إزاحة شبهتهم التي أستزلوا بها عقول الضعفاء، فينبغي قراءة ما كتبه.[٤١] وأختصرُ منها تلك الفوائد:

١- كل شيء موجود ثابت فهو حق باعتبار ذاته، ثم إذا كان مقصودًا نافعًا، أي: متصفًا بالصفات المؤهلة له لتحقيق الغاية منه بلا نقص ولا عيب فهو حق بأعتبار صفاته ووجود الشيء له مرتبتان:

أ. وُجُودِه فِي الأعيان، أي: في الكائنات الموجودة في الكون.
ب. وُجُودِهِ فِي الْأَذْهَانِ وَاللِّسَانِ وَالْبَنَانِ، وَهُوَ الْعِلْمُ وَالْقَوْلُ وَالْكِتَاب.

---

٣٧ محمد: ١.
٣٨ محمد: ٨.
٣٩ مجموع الفتاوى ج٢ صـ ٤١٧-٤١٩.
٤٠ المائدة: ١٧، ٧٢.
٤١ مجموع الفتاوى من صـ ٤١٤ إلى صـ ٤٢٧.

٢- لا يجوز إطلاق القول بأن الشيء حقّ لمجرد أنه مخلوق موجود، إلا بقرينه تُبين المراد، فمثلاً: لا يجوز إطلاق القول بأن إبليس حقّ لمجرد أنه مخلوق موجود، لكن بقرينه تُبين المراد.

٣- من الموجودات: الاعتقاد والقصد (في القلب)، والخبر والأمر (بقول اللِّسَانِ وَكتابة الْبَنَانِ) فإن كانت مطابقة موافقة كانت حقًا وإلا كانت باطلاً، فالعمل والقصد والأمر إنما هو حق بأعتبار حقيقته المقصودة، فإن حصلت وكانت نافعة كان حقًا، وإن لم تحصل، أو حصل ما لامنفعة فيه كان باطلاً. فعُلِمَ أن فِي الْوُجُودِ مَا هُوَ مِنْ الْبَاطِلِ كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ. فمثلاً قوله تعالى ﴿**لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم**﴾[٤٢] فالصدقة وُجدت فهي حقٌ باعتبار وجودها لكنها لم تنفع صاحبها حيث أبطلها بالرياء أو بِالْمَنِّ وَالأذَى، وعمم فقال -سبحانه- ﴿**وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ**﴾[٤٣] اعتقادًا واقتصادًا، خبرًا وأمرًا، ولقد أَضلَّ الله أَعْمالَ الكافرين لم تنفعهم لأنهم اتبعوا الباطل قولاً وعملاً.

٤- سبق ذكر آية سورة الرعد ﴿**أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ ..** ﴾ فجعل ذلك الزَبَد هو مَثل الباطل الذي لا منفعة فيه، وأما ما ينفع الناس من الماء والمعادن فهو مَثل الحق النافع فيستقر ويبقى في القلب.

٥- قول النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ﴾.[٤٤]

قال أهل الضلال: الْبَاطِلُ هُوَ الْمَعْدُومُ، وكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ مَعْدُومٌ، وَالْمَوْجُودُ لَيْسَ بِمَعْدُومٍ. فَالْمَوْجُودُ لَيْسَ فِيهِ سَوِيٌّ، وَإِنَّمَا السَّوِيُّ هُوَ الْعَدَمُ، وإذن فكل موجود هو الله. تعالى الله عما يقولون علواً كبيرًا. ولقد علمت بطلان شبهتهم الحقيرة.

أما عبارة: ﴿أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ﴾ فقد قال ابْنُ تَيْمِيَّة:

---

٤٢ البقرة: ٢٦٤.

٤٣ محمد: ٣٣.

٤٤ متفقٌ عليه، واللفظ لأحمد.

أولاً: كُلَّ مَا خَلَا اللَّهَ فَهُوَ مَعْدُومٌ بِنَفْسِهِ لَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وُجُودٌ وَلَا حَرَكَةٌ وَلَا عَمَلٌ وَلَا نَفْعٌ لِغَيْرِهِ مِنْهُ إِذْ ذَلِكَ جَمِيعُهُ خَلْقُ اللَّهِ وَإِبْدَاعُهُ وَبَرْؤُهُ وَتَصْوِيرُهُ، فَكُلُّ الْأَشْيَاءِ إِذَا تَخَلَّى عَنْهَا اللَّهُ فَهِيَ بَاطِلٌ يَكْفِي فِي عَدَمِهَا وَبُطْلَانِهَا نَفْسُ تَخَلِّيهِ عَنْهَا وَأَنْ لَا يُقِيمَهَا هُوَ بِخَلْقِهِ وَرِزْقِهِ. وَإِذَا كَانَتْ بَاطِلَةً فِي أَنْفُسِهَا – وَالْحَقُّ إِنَّمَا هُوَ لِلَّهِ وَبِاللَّهِ وَمِنْ اللَّهِ – صَدَقَ قَوْلُ الْقَائِلِ : "أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ" بِاعْتِبَارَيْنِ. أ.هـــ.[٤٥]

قلتُ: توضيحًا لذلك تَذَكّر اسم الله تعالى الـــمُّقيت، فهو يُعطي الشيء قُوتَه ليوجد، ثم يُعطيه قوتًا آخر ليستمر، فإذا أراد انعدام هذا الشيء حبس عنه قُوتَه فيزول وينعدم، قال تعالى ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾[٤٦]. والذَرَّة وأقْواتُها مثال واضح على ذلك.

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ: مُّقيت – وَكِيل – حَفِيظ – شَهِيد – رَقِيب. فضلاً على أنه الْخَالِقُ الْبَدِيعُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ.

ثانيًا: الوجه الثاني للحق: هُوَ الْمَقْصُودُ النَّافِعُ. وَالْبَاطِلُ مَا لَا مَنْفَعَةَ فِي قَصْدِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ -إِذَا كَانَ لَهُ الْقَصْدُ وَالْعَمَلُ- كَانَ ذَلِكَ بَاطِلًا، وَالْأَمْرُ بِهِ بَاطِلٌ، وَهَذَا يُشْبِهُ حَالَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ أَوْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ بِغَيْرِ أَمْرِ اللَّهِ وَلَا شَرْعِهِ .... فَالشَّيْءُ الْمَقْصُودُ لِأَمْرٍ هُوَ بَاطِلٌ مُنْتَفٍ إِذَا انْتَفَتْ فَائِدَتُهُ وَمَقْصُودُهُ، فَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْبُودًا وَلَا مُسْتَعَانًا، فَقَدْ انْتَفَى مِمَّا سِوَى اللَّهِ هَذَا الْمَعْنَى الْمَقْصُودُ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صَمَدًا مَقْصُودًا، وَلَا مَعْبُودًا، وَلَا فَائِدَةَ فِي قَصْدِهِ، وَلَا مَنْفَعَةَ فِي عِبَادَتِهِ وَاسْتِعَانَتِهِ: فَهُوَ بَاطِلٌ. وَهَذَا وَاضِحٌ، وَهَذَا عُمُومٌ مَحْفُوظٌ لَا يُسْتَثْنَى مِنْهُ شَيْءٌ. أ.هـــ.[٤٧]

---

٤٥ ثم توسع رحمه الله في اللغويات صـــ ٤٢٦ وما بعدها في الموطن السَّابق ذِكْرُه.

٤٦ فاطر: ٤١.

٤٧ مجموع الفتاوى ج٢ صـــ ٤٢٢-٤٢٤.

وقال –رَحِمَهُ اللَّهُ–: وَهَذَا التَّوْحِيدُ وَتَفْسِيرُهُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ ﴿أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ﴾ هُوَ نَحْوٌ مِمَّا ذَكَرَ فِي قَوْله تَعَالَى ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾[٤٨] بَعْدَ قَوْلِهِ ﴿**فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ**﴾[٤٩] ﴿**وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[٥٠] ﴿**وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَـهًا آخَرَ لاَ إِلَـه إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾[٥١] فَإِنَّ ذِكْرَهُ ذَلِكَ بَعْدَ نَهْيِهِ عَنْ الْإِشْرَاكِ وَأَنْ يَدْعُوَ مَعَهُ إِلَـهًا آخَرَ، وَقَوْلِهِ ﴿**لاَ إِلَـه إِلاَّ هُوَ**﴾ يَقْتَضِي أَظْهَرَ الْوَجْهَيْنِ، وَهُوَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلَّا مَا كَانَ لِوَجْهِهِ مِنْ الْأَعْيَانِ وَالْأَعْمَالِ وَغَيْرِهِمَا. أ.هـ.[٥٢]

فالْحَقُّ من أسمائه عز وجل يرجع إلى معنيين:

١- الوجودُ الثابت أولاً وأبدًا، الأول بلا ابتداء فليس قبله شيء، والآخر بلا انتهاء فليس بعده شيء.

٢- صفات الكمال التي هُوَ بها الإِلَـه الْحَقُّ - الربّ الْحَقّ - الْمَلِكُ الْحَقُّ - الْمَوْلَى الْحَقّ. كما سيأتي في الآيات بيانه.

ومن اقتصر من الشُّراح على أنَّه "الواجب لذاته" فالوجواب الذاتي يستتبع الاتصاف بالحكمة، بل بجميع الصفات الكاملة، كما قال الآلوسي.[٥٣]

قال الراغب: الْحَقُّ في الأسماء الحسنى: الموجد بحسب ما تقتضيه الحكمة. قال: ويُقال لكل موجود من فعله بمقتضى الحكمة حق، ويطلق على الاعتقاد في الشيء المطابق لما دلَّ ذلك الشيء عليه في نفس الأمر، وعلى الفعل الواقع بحسب ما يجب قدرًا وزمانًا، وكذا القول ويُطلق على الواجب واللازم والثابت والجائز.

---

٤٨ القصص: ٨٨.

٤٩ القصص: ٨٦.

٥٠ القصص: ٨٧.

٥١ القصص: ٨٨.

٥٢ صـ٤٢٧ ثم فَصَّلَ ذلك وبينه أحسن بيان حتى صـ ٤٣٤.

٥٣ راجع تفسير الآلوسي عند قوله تعالى {وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} النور:٢٥.

قال الشيخ السعدي –رَحِمَهُ اللَّهُ–: "الْحَقُّ" في ذاته وصفاته، فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به. فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفًا، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفا. فقوله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق، وكل شيء ينسب إليه فهو حق. ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾[٥٤] ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾[٥٥] ﴿**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ**﴾[٥٦] ﴿**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾[٥٧].

وَفِي السُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يستفتحُ صلاة الليل قائلاً ﴿اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ حَقٌّ﴾[٥٨]. سيأتي بيان هذا الحديث فيما بعد، لا سيما تحت عنوان: الخلق بالحق، لكن نُعجل هنا فقرةً واحدة منه وهي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ﴾. وأكتفي هنا بذكر مناظرة لابْنُ الْقَيِّم رحمه الله، وقد جرت له مناظرة بمصر مع أكبر من يشير اليه اليهود بالعلم والرياسة، حيث اعتمد في البرهان حقِّية كلٍّ من علمِ الله وقدرته وحكمته، حيث لا يُماري في ذلك عاقل من أهل الكتاب.

قال ابْنُ الْقَيِّم: أنتم بتكذيبكم محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد شتمتم الله أعظم شتيمة، فعجب من ذلك، وقال: مثلك يقول هذا الكلام! فقلت له: إسمع الآن تقريره: إذا قلتم أن محمدًا ملك ظالم قهر الناس بسيفه، وليس برسول من عند الله، وقد أقام ثلاثا وعشرين سنة يدَّعِي أنه رسول الله أرسله إلى الخلق كافة، ويقول: أمرني الله بكذا ونهاني عن كذا، وأوحي إلَيَّ كذا –ولم يكن من ذلك شيء–

---

٥٤ الحج: ٦٢.

٥٥ الكهف: ٢٩.

٥٦ يونس: ٣٢.

٥٧ الإسراء: ٨١.

٥٨ رواه البخاريّ من حديث ابْنَ عَبَّاسٍ بَاب التَّهَجُّدِ بِاللَّيْلِ.

ويقول: إنه أباح لي سبي ذراري من كذبني وخالفني ونساءهم، وغنيمة أموالهم، وقتل رجالهم -ولم يكن من ذلك شيء-، وهو يدأب في تغيير دين الأنبياء، ومعاداة أممهم ونسخ شرائعهم. فلا يخلو إما أن تقولوا: أن الله سبحانه كان يطلع على ذلك ويشاهده ويعلمه، أو تقولوا: أنه خفيّ عنه ولم يعلم به! فإن قلتم: لم يعلم به نسبتموه الى أقبح الجهل، وكان من علم ذلك أعلم منه، وإن قلتم: بل كان ذلك كله بعلمه ومشاهدته وإطلاعه عليه؛ فلا يخلو إما: أن يكون قادراً على تغييره، والأخذ على يديه ومنعه من ذلك، أو لا، فإن لم يكن قادراً فقد نسبتموه الى أقبح العجز المنافي للربوبية، وإن كان قادراً وهو مع ذلك يعزه وينصره ويؤيده، ويعليه ويعلى كلمته، ويجيب دعاءه، ويمكنه من أعدائه، ويظهر على يديه من أنواع المعجزات والكرامات ما يزيد على الألف، ولا يقصده أحد بسوء إلا أظفره به، ولا يدعوه بدعوة إلا استجابها له. فهذا من أعظم الظلم والسَّفه الذي لا يليق نسبته إلى آحاد العقلاء فضلاً عن رب الأرض والسماء، فكيف وهو يشهد له بإقراره على دعوته، وبتأييده وبكلامه، وهذه عندكم شهادة زُور وكذب.

فلما سمع ذلك قال: معاذ الله أن يفعل الله هذا بكاذب مُفْتَر، بل هو نبيّ صادق، من أتبعه أفلح وسعد.

قلت: فما لك لا تدخل في دينه؟ قال: إنما بُعث إلى الأميين الذي لا كتاب لهم، وأما نحن فعندنا كتاب نتبعه. قلت له: غُلِبتَ كُلَّ الغلب، فإنه قد علم الخاص والعام أنه أخبر أنه رسول الله الى جميع الخلق، وأن من لم يتبعه فهو كافر من أهل الجحيم، وقاتل اليهود والنصارى وهم أهل كتاب، وإذا صحت رسالته وجب تصديقه في كل ما أخبر به. فأمسك ولم يحر جوابا.أ.هـ[٥٩]

قلتُ: أدلة حَقِّيّته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيرة، وعلى رأسها شهادة الله سبحانه بهذا القرآن الذي أنزله عليه متضمنًا على علمه الذي لا يعلمه إلا هو سبحانه، فلا يرتاب فيه عاقل. قال تعالى ﴿**لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا**﴾[٦٠]، ومن ذلك إعجاز القرآن، والذي لا ينحصر.

---

٥٩ هداية الحيارى صـ ١٨٠.

٦٠ النساء: ١٦٦.

ذكرُه في القُرْآن الْمَجيد: جاء اسم الْحَقُّ سُبْحَانَهُ في عشر آيات من آيات الكتاب وسنتناولها كُلَّها بالبيان الـــمُفصل المتضمن للمعاني الإيمانية والـــحُجج والبراهين.

أولاً: الرَّبَّ الْحَقّ[٦١]:

﴿**قُلْ مَن يَرزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ ... فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ... الآيات**﴾[٦٢].

قال الراغب: والربُّ في الأصل: التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام.

فهو رَبُّ كل شيء، ربُّ السماوات والأرض وربُّ العالمين، يخلق ويرِّزْق ويتصرف ويُدبِّر أمر المخلوقات بمشيئته النافذة، وجاء ذكره في الكتاب قرابة الألف مرة موزعة ثلاثة أقسام:

١- القدري الكوني: وهو الخَلْقُ وتدبيرُ الأمور ﴿**خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾[٦٣]﴿**كُن فَيَكُونُ**﴾[٦٤].

٢- التشريعي: الرسالات والنبوات والرسل والكتب والأمر والنهي[٦٥].

٣- الجزائي: المثوبات والعقوبات في الدنيا والآخرة، والبعث والحساب والفصل بين العباد ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ..** ﴾[٦٦] ﴿**جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء..** ﴾[٦٧].

---

٦١ وقد ورد الرَّبَّ الْحَقّ في القرآن مرة واحدة في سورة يونس: ٣٢.

٦٢ يونس: ٣٢.

٦٣ القمر: ٤٩.

٦٤ الآية وردت ثمان مرات في كتاب الله في البقرة:١١٧، آل عمران: ٤٧،٥٩، الأنعام: ٧٣، النحل: ٤٠، مريم: ٣٥، يس: ٨٢، غافر:٦٨.

٦٥ {تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ}السجدة:٢{إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}الزخرف: ٤٦{أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي ..}الأعراف:٦٢،٦٨،٩٣.

٦٦ السجدة: ٢٥.

والإنسان كغيره من المخلوقات فقيرٌ بالذات لا يكون إلا فقيرًا محتاجًا لا سيما إلى أساسياته الثلاثة:

(الرِّزْق – النصر – الهُدى) بمعنى جلب المنفعة ودفع المضرة في بدنه وماله وبيته وأهله وأرضه وفي دينه إذ ليس له نصيب من الحَيَاةً الطَّيِّبَةً إلا باتصال القلب والروح بالإِلَـٰه الْحَقُّ، ولا يكون ذلك إلا بالهُدى ودين الحق، وهو الإيمان والعمل الصالح، وأنى للإنسان بذلك إلا بربِّه الحقّ المتصف بكل كمالٍ وفعلٍ مُشرَّف.

ويُخطيء من يُقدِّم الرِّزْقَ والنصرَ على الهُدى في ضرورات الإنسان، بل الهُدى أعظم من الرِّزْق والنصر إذ بدونه لا يكون إلا الـمَعِيشَةً الضَنك، والرِّزْق والنصر قد لا ينتفع بهما إلا في الدنيا، والهدى هو المقصود بالرِّزْق والنصر لأن الله إنما سخر للإنسان ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه ليستعين بها على تحقيق ما خُلق من أجله ﴿**لِيَعْبُدُونِ**﴾[٦٨]، ولذلك خَصَّه الله بالتكبير ﴿**وَلِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ**﴾[٦٩] لأنه أكبر نعمة الحق سبحانه، وذانك دونه، فوسَّع الأمر فيهما بعموم ذكر اسم الله ﴿**لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ**﴾[٧٠].

لذا يجب على الإنسان أول ما يجب الإقرار بتلك الربوبية كما كان من أصحاب الكهف، قال تعالى ﴿**وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَـٰهًا**...﴾[٧١] فإذا افتقر العبد إلى ربه واصْطَبَغ قلبه بذلك اندفع إلى الضَّراعة والاستعانة والتوكل والاستعاذة والاعتصام بالله (**وهي الكنوز الخمسة**) وعَلِمَّ نعمةَ الله في الإيمان والعمل الصالح، وشَهِدّ القدَّر في الطاعاتِ أنها بخلق الله وتقديره وعونه وتوفيقه، فشكر الله عليها أكثر مما يشكره على النِّعم الدنيوية (الرِّزْق والنصر) فزاده الله منها، وأتمَّ نعمته عليه فأفلح كل الفلاح. وقضية الربوبية والإِلَـٰهية من أوليات وكُبريات قضايا التوحيد، وأوسعها ذكرًا في الكتاب.

---

٦٧ النبأ: ٣٦.

٦٨ الذَّارِيَات: ٥٦.

٦٩ البقرة: ١٨٥.

٧٠ الحج: ٣٤.

٧١ الكهف: ١٤.

نعود إلى الآيات ﴿**قُلْ مَن يَرزُقكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ* فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ**﴾[٧٢].

١- الرِّزْق في السَّماء والأرض: رِزْق الأبدان: طعام وشراب – الماء – تجدد الأكسوجين – وتصريف الرياح – الكسوة – البيوت للسكن – والفُرش – والطيب – المراكب بأنواعها برًّا وبحرًا وجوًا – الرِّزْق بالأزواج والبنين والأحفاد ... وغير ذلك كثير لا يُحصيه بتفاصيله إلا الرَّزَّاق سبحانه.

قال تعالى ﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[٧٣] فلننظر إلى مليارات الأطنان من الماء النازل من السماء بِقَدَر (لو زاد لأغرق كل شيء، ولو نقص لهلك الحرث والنسل من الناس والأنعام) ولننظر كيف أُسكن في الأرض في الآبار والعيون والأنهار، وكيف أنبت الله به مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ، ومن حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لأحدٍ أَن ينبِتَ شَجَرَهَا ... ثم ضوء الشمس وحرارتها ونور القمر، وما في الغلاف الجوي من تدبيرات، وتصريف الرياح حيث يتجدد الأكسوجين لتظل نسبته في الجو ثابتة (٢١%) فلا ينقص فيحدث اختناق للناس، ولا تزداد فتكثر الحرائق، ويصعب اطفاؤها، ويستهلك الناس والأحياء الأخرى الأكسوجين بلا توقف ويخرج غاز ثاني أكسيد الكربون الذي تحمله الرياح إلى النباتات والشجر لاستخلاص الأكسوجين مرة ثانية وتحمله الرياح إلى المستهلك، وهكذا فيستمر رِزْق الإنسان باللحوم، والألبان ومنتجاتها والجلود، وغيرها، ويستمر الطير في جو السماء للصيد، وكذلك الأسماك في البحار والأنهار ... فمن يرِّزْق بهذا الرِّزْق إلا الله سبحانه، فيقرر الله المشركين وهو فطرهم على معرفته، كما قال تعالى ﴿**فَسَيَقُولُونَ اللّهُ**﴾ فقد اقرّوا واعترفوا فلزمتهم الحُجة أن الله الذي خلق هذه الأرزاق وقدَّرها تقديرًا، وأدامَها، وهدى كلَّ مخلوق لتحصيل رِزْقه، إنه لربٌّ خلاَّق عليم قادر مقتدر عزيز عليم حكيم مُقيت حسيب حفيظ شهيد وكيل، له ما في السماوات وما في الأرض وكفى به وكيلاً، لا يعجزه شيء، وذلك معناه أنه ربُّهم الَحقُّ الذي يَستَحِق

---

٧٢ يونس: ٣١،٣٢.

٧٣ لقمان: ٢٧.

وَحْدَه تألُّهَهُم وعبادَتَهم وليس بَعْدَ هذا الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَل، كما في سورة النمل:٦٠:٦٤، يذكر سبحانه من آياته وآلائه ثم يقول ﴿**أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ**﴾ أي أَإِلَـٰهٌ فعل من ذلك شيئًا مع الله؟.

قوله ﴿**أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأبْصَارَ**﴾ السَّمع مصدر فهو يدل على العموم، والبصر اسم فاحتاج إلى الجمع للدلالة على العموم.[٧٤]

أما آلة السمع وآلة البصر فهما من أعاجيب آيات الله في خلق الإنسان.

كيف للأذن أن تُميز بين آلاف الأصوات المسموعة (هذا طفل-هذا شاب-هذا مُسِن-هذه امرأة-هذا ضَحك-هذا بُكاء-هذا صوت زواحف وحشرات-هذه: مياه متحركة-هذه نغمات موسيقى بلا حصر) لكل إنسان صوت يُعرف به ... وهكذا.

هذه المسموعات تنتقل إلى المراكز المتخصصة في المخ عبر مائة ألف خلية عصبية فكيف خُلقت؟!

إن أبسط دراسة تشريحية للأذن لا يملك العاقل حيالها إلا أن يُقِر ويعترف أن الذي خلق ذلك لهو الرَّبُّ حَقَّ الرَّبِّ العليمِ القديرِ الحكيمِ، وبفَقْد هذه النعمة لا سمع ولا نطق ولا تعلم ولا فهم إلا القليل وبصعوبة. ونفس الشيء يُقال عن البصر وخذ بعضًا من حقائقها:

- العصب البصري: ينقل الصور المرئية والألوان المشاهدة إلى المركز المتخصص في المخ عبر نصف مليون ليف عصبي كأنه ٥٠٠٠٠٠ جهاز تليفزيوني مُلون. وعجبًا.

تتحرك العينان إلى أي أتجاه بمجرد الإرادة وبدون الحاجة إلى تحريك الوجه، ويتم ذلك عن طريق ستة أعصاب تتحكم في سبع عضلات لكل عين، منها عضلة تختص برفع الجفن العلوي وخفضه، وثلاثة لكل عين تتزن مع الثلاثة في العين الأخرى بشكل متناسق، وأي خلل في الحركة يتسبب في رؤية الأشياء مُضاعفة أو مُضطربة مهزوزة وتحدث الرأرأة المعروفة (وهي اهتزاز كُرة العين وعدم التمكن من تثبيت البصر تمامًا، كما يحدث الحَوَل للأيمن أو للأيسر)، بل تتعاون الأعصاب الثلاثة في طرف مع الثلاثة الأخرى في الطرف الآخر لتركيز العينين في جهة واحدة على منطقة بعينها، إن تفصيل ذلك

---

٧٤ انظر التحرير والتنوير.

يُبين أنه سبحانه الربُّ الحق أي المتصف بكل الكمالات المطلوبة للربوبية الحق، ومن ثَمَّ فهو الإِلَـٰه الْحَقُّ وحده لا شريك له، ونفس الشيء يُقال عن قوله تعالى ﴿**وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ**﴾ وتفصيل ذلك لا متسع له في هذا السياق.

ثانيًا: الْمَلِكُ الْحَقّ[٧٥]:

الْمَلِك: هو من تكون يده في مُلكه قويةً صحيحةً، فيتصرف في مُلكه بما يريد بلا مُعارض وعلى مقتضى الحكمة، وذلك يستلزم سائر صفات الكمال.

قال ابْنُ الْقَيِّم: إن من أسمائه: الْمَلِك، ومعناه: الـــمُلْك الحقيقي ثابتٌ له سبحانه بكل وجه. وهذه الصفة تستلزم سائر صفات الكمال، إذ من المحال ثبوت الملك الحقيقي التام لمن ليس له حياة ولا قدرة ولا إرادة ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا فعل اختياري يقوم به، وكيف يوصف بالملك من لا يأمر ولا ينهى، ولا يثيب ولا يعاقب، ولا يعطي ولا يمنع ولا يعز ولا يذل، ولا يُهين ولا يُكرم، ولا يُنعم ولا ينتقم ولا يخفض ولا يرفع، ولا يرسل الرسل إلى أقطار مملكته، ولا يتقدم إلى عبيده بأوامره ونواهيه، فأي مُلْك في الحقيقة لمن عدم ذلك، فصفة مَلِكِيَّة الحق مستلزمة لوجود ما لا يتم التصرف إلا به، والكل منه سبحانه، فلم يتوقف كمالُ ملكِه على غيره، فإن كل ما سواه مُسندٌ إليه، متوقف في وجوده على مشيئته وخلقه.أ.هـــ.[٧٦]

قال تعالى ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ* فَتَعَالَى اللّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**﴾[٧٧].

قال ابْنُ الْقَيِّم: ثم نزَّه نفسه عن هذا الحسبان المضاد لحكمته وعلمه وحمده فقال ﴿**فَتَعَالَى اللّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ**﴾ وتأمل ما في هذين الإسمين وهما: الْمَلِكُ الْحَقُّ من إبطال هذا الحسبان الذي ظنه أعداؤه إذ هو مُنافٍ لكمال مُلكه ولكونه الْحَقُّ، إذ الْمَلِكُ الْحَقُّ هو الذي يكون له الأمر والنهي. فيتصرف في خلقه بقوله وأمره، وهذا هو الفرق بين الملِك والمالك، إذ المالك هو المتصرف بفعله، والملك هو المتصرف بفعله وأمره. والرب تعالى مالكُ الملك فهو المتصرفُ بفعله وأمرِه، فمن ظن أنه خلق خلقه عبثًا لم يأمرهم ولم ينههم، فقد طعن في ملكه، ولم يقدره حق قدره كما قال تعالى ﴿**وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ**

---

٧٥ ورد الملك الحق مرتين في كلام الله، طه: ١١٤، المؤمنون: ١١٦.

٧٦ بتصرف من شفاء العليل ج٢ صـــ ٦٠٩-٦١٠.

٧٧ المؤمنون: ١١٥-١١٦.

قدْرِهِ إِذْ قالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾[٧٨] فمن جحد شرع الله وأمره ونهيه وجعل الخلق بمنزلة الأنعام المهملة فقد طعن في ملك الله ولم يقدره حق قدره، وكذلك كونه تعالى إِلَـٰه الخلق يقتضي كمال ذاته وصفاته وأسمائه ووقوع أفعاله على أكمل الوجوه وأتمها، فكما أن ذاته الحق؛ فقوله الحق، ووعده الحق، وأمره الحق، وأفعاله كلها حق، وجزاؤه المستلزم لشرعه ودينه ولليوم الآخر حق.

فمن أنكر شيئا من ذلك فما وصف الله بأنه الحق المطلق من كل وجه وبكل اعتبار، فكونه حقًا يستلزم شرعه ودينه وثوابه وعقابه. فكيف يُظن بالمَلِك الحق أن يخلق خلقَه عبثًا، وأن يتركهم سدىً لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم.أ.هـ.[٧٩]

قلتُ: فأخصُّ خصائص الملك: الأمر والنهي والتشريع وما يلزم من الثواب والعقاب، وفي حديث النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ في الصحيحين ﴿أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ﴾[٨٠] والله سبحانه وتعالى حمى هذه المحرمات، ومنع عباده من قربانها وسماها "حدوده" فقال ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا**﴾[٨١] وهذا فيه بيان أنه حدَّ لهم ما أحلَّ لهم وما حرَّم عليهم، فلا يقربوا الحرام، ولا يتعدّوا الحلال، وكذلك قال في آية أخرى ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[٨٢]. [٨٣]

إن من ملوك الأرض من له محرمات يحميها، فإذا وقعت فيها الرعية لا يعلم، وإذا عَلِم لا يتحرك، وإذا تحرك لا يقدر على الحماية والعقوبة، وبعض أوامره لا نفوذ لها في ملكه، ومع ذلك يُدعى بالمَلِك، فليس مَلِكًا حقًا (على مستوى البشر) أما الْمَلِكُ الْحَقُّ فعلمه كامل بما يقع من رعيته، وما يجري في مملكته، وقدرتُه كاملة لما يريد من المثوبة والعقوبة، وحكمته كاملة في التعجيل والتأجيل، وعدله كامل فلا ظلم ولا هضم، وفضله كامل يحلُم ويعفو ويغفر ويرحم ما يشاء لا راد لفضله، إلى آخر الصفات

---

٧٨ الأنعام: ٩١.

٧٩ بدائع الفوائد.

٨٠ متفقٌ عليه، واللفظ لمسلم.

٨١ البقرة: ١٨٧.

٨٢ البقرة: ٢٢٩.

٨٣ جامع العلوم والحِكم صـ ٢٠٨.

المطلوبة للملكية الحق، فعاد الأمر في "الْحَقّ" إلى اكتمال صفات الكمال اللازمة لتحقيق المطلوب: الْمَلِكُ الْحَقّ- الربُّ الْحَقّ- الْمَوْلَى الْحَقّ - الإِلَـٰه الْحَقُّ.

٢- قال تعالى ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾[٨٤] لنعد إلى سياق الآية لنرى من الصفات والأفعال الدالة على ملكيته الحق وتعاليه عما يظنه المشركون الجاحدون:

﴿**يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا**﴾[٨٥] لا عِوَجَ لدعائه لا في اسماعهم إياه ولا في إجابتهم له، وذلك: (يوم يرون هذه الأحوال والأهوال، يستجيبون مسارعين إلى الداعي، حيثما أُمروا بادروا إليه)[٨٦]، ولو كانوا فعلوه في الدنيا وعلموا أنه: الْمَلِكُ الْحَقّ المستوجب لاستجابة العبيد، لكان أنفعَ لهم، ولكن حيث لا ينفعهم.

﴿**يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً**﴾[٨٧]

الشفاعة كلها مِلْك للملك الحق وحده ﴿**قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا**﴾[٨٨] ﴿**مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ**﴾[٨٩] فهو يملك الشافع والمشفوع فيه، والشفاعة وتوقيتها وقدرها، ﴿**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾[٩٠] أما ملوك الأرض فَيُشفعُ عندهم بدون إذنهم ولا يستطيعون الردّ لأن بقاءهم إنما يكون بملئهم ومعاونيهم، فما أحوجهم إليهم، لكن الْمَلِك الْحَقّ لا يحتاج إلى المخلوق، ولا شفاعة عنده إلا من بعد إذنه، وما الشفاعة عنده إلا برحمته وفضله العظيم لينال الشافعُ أجرًا كبيرًا من حيث لا يحتسب، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الشفيع الأول، وهو لا يملك مِثْقَالَ ذَرَّة من الشَّفَاعَة، وقد استغفر لابن سلول وألبسه قميصه[٩١]وهو يحتضر فقال تعالى ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ**

---

٨٤ طه: ١١٤.

٨٥ طه: ١٠٨.

٨٦ ما بين المعكوفتين من كلام ابْنُ كَثِير في تفسيره.

٨٧ طه: ١٠٩.

٨٨ الزمر: ٤٤.

٨٩ السجدة: ٤.

٩٠ البقرة: ٢٥٥.

٩١ كما في حديث ابن عمر في الصحيحين.

إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾[٩٢]﴿**سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ**﴾[٩٣].

وخليل الله إبراهيم يشفع لأبيه يوم القيامة فتُرد شفاعته ويُمسخ أبوه فإذا هو بِذِيخٍ قبيحٍ مُلْتَطِخٍ بالدم والتراب فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ الأربع وَيُلْقَى فِي النَّارِ[٩٤]، وإبراهيم عليه السلام ينظر.

وردت شفاعة نوح عليه السلام لابنه، والملائكةُ أيضًا. قال تعالى ﴿**وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى**﴾[٩٥] إنه الْمَلِكُ الْحَقّ.

﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾[٩٦] له الكمال في العلم، يقبل الشفعاعة ويردها عن علم محيط، ولا يحدث في ملكه شيء إلا بعلمه؛ بل هو خالقه، وهو خالق أفعال العباد فلا تخفى عليه خافية.

﴿**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا**﴾[٩٧] قال ابْنُ كَثِير: قال ابن عباس، وغير واحد: خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت، القيوم: الذي لا ينام، وهو قيم على كل شيء، يدبره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كل شيء فقير إليه، لا قوام له إلا به. ويوم القيامة، فيؤدى كل حق إلى صاحبه، حتى يقتص للشاة الْجَلْحَاءِ من الشاة القرناء[٩٨]. وفي الحديث: ﴿يقول الله تعالى: وعزتي وجلالي، لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم﴾[٩٩]. أ.هـ بتصرف يسير.

﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْمًا وَلاَ هَضْمًا**﴾ فلا يُزاد في السيئات ولا يُنقص من الحسنات ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ وقال ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾. إن ظلم الملوك لرعاياهم لا يُحصى، وهم

---

٩٢ التوبة: ٨٠.

٩٣ المنافقون: ٦.

٩٤ كما في حديث أبي هريرة عند البخاري ومسلم وغيرهما.

٩٥ النجم: ٢٦.

٩٦ طه: ١١٠.

٩٧ طه: ١١١.

٩٨ كما في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة، باب تحريم الظلم، والحديث {لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ}.

٩٩ قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني وفيه يزيد بن ربيعة وقد ضعفه جماعة وقال ابن عدي : أرجو أنه لا بأس به ، وبقية رجاله ثقات. وفي روضة المحدثين: قال الحافظ الذهبي في " العلو " ١ / ٩١: الحديث منكر و إسناده وسط.

يؤاخِذُون آحادَ الرعية بغير سابق إعذار ولا إنذار، ويقولون لهم: "القانون لا يحمي المغفلين"، قرارات مَلكِية ببطش شديد دون مراعاة للظروف والأعذار الصحيحة، ودون تحقيقات عادلة.

فانظر الآن إلى عدل الملك الحق القائل ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾[١٠٠] وكل رسول بلسان قومه ليُبين لهم، ومعه من الترهيب والترغيب ما يكفي للتأثير في القلوب بالخوف أو بالتذكر، ومعه أيضًا من الحجج والبراهين والآيات البينات في الكتاب المبين كما سبق ذكر بعضها وسيأتي أيضًا، ونذكر الآن مثلاً من الرسالتين العظيمتين – رسالة موسى ورسالة محمد عليهما الصلاة والسلام-.

قال الله تعالى لموسى وهارون ﴿**فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾[١٠١] وقال في نفس السورة ﴿**وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا**﴾[١٠٢] لاحظ أنه تعالى لم يقل: يتذكر ويخشى، ولا قال: يتقون ويُحدث لهم ذكرًا، بل جعل المطلوب أحد الأمرين: ﴿**يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾ ،﴿**يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا**﴾.

لأن أصل الفطرة التي فُطر الناس عليها إذا سلمت من الفساد: إذا رأت الحق اتبعته وأحبته، فإذا دَخل القلبَ مُعارضٌ من هوى وكبر وحسد ونحو ذلك، احتاج إلى ما يدفع ذلك الهوى بعيدًا عن القلب، وذلك هو الخوف الذي ينهى النفس عن الهوى، كما قال تعالى ﴿**أَوْ يَخْشَى**﴾ وكمال قال ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾، فتارة يكون العبد إذا عرف الحق وتبين له اتبعه وعمل به فهذا هو الذي يُدعى بالحكمة، وهو الذي ﴿**يَتَذَكَّرُ**﴾ أي: ما بفطرته، وهو الذي يُحدث له القرآن ﴿**ذِكْرًا**﴾، وتارة يغلب عليه الهوى فيحتاج إلى الخوف كما سبق ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى**﴾[١٠٣] فلْنطبِّق هذا على هذه الآية:﴿ **وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا**﴾.

القرآن عربيّ مُبين غير ذي عوج، وآياته بينات فحجته قائمة على جميع البشر لمن بلغه فيُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا.

وصَّرف ونوَّع الله فيه من التخويف الذي لا يُحتاج معه إلى مزيد، عذاب الحريق-عذاب بالطعام والشراب-عذاب بالزقوم كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ-عذاب بالحميم الآن-عذاب بمقامع الحديد-عذاب السَّلْك في السلاسل الضخمة-المرور على الصراط كحدِّ الموسى-عذاب بالحيّات والهوام والسباع في

---

١٠٠ الإسراء: ١٥.

١٠١ طه: ٤٤.

١٠٢ طه: ١١٣.

١٠٣ راجع طريقة العلم والعمل ج ١٥ صـــ ٢٣٩-٢٤٧. مجموع الفتاوى.

النار.. وغير ذلك الكثير. أنواع وأنواع-عذاب القبر-وسكرات الموت-وأهوال القيامة، وذلك لعلهم يتقون ويخافون فينتهوا عما به يُعذبون، وهو في ذلك حليم غفور تواب لا يعاجل بالعقوبة، ويُعطي الفرصة لعله يستغفر أو يتوب فكأنه لم يُذنب، بل تُبدل سيئاته حسنات، ومن استخف بملكيَّته واعتاد الاعتداء على حماه ذكّره بقوله تعالى ﴿**يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا**﴾. ثم ختم هذا السياق بقوله ﴿**فَتَعَالَى اللّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾[١٠٤]. فذكر من صفات الملكية الحقِّ وتعاليه عن أن يختل شيء منها، وذكر مثالاً مما يكون يوم الدين ﴿**يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ ..**﴾ فكان معنى قوله ﴿**فَتَعَالَى اللّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ**﴾ واضحًا تمامًا.

---

١٠٤ طه: ١١٤.

﴿مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ﴾

جاء ذلك في آيتين:﴿**هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ..**﴾[١٠٥].

﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ٦١ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ٦٢**﴾[١٠٦].

لا غُنْية للإنسان أبدًا عن مولىً يتولاه في دينه ودنياه، فهو فقيرٌ بالذات إلى مولىً يتولى أموره ويوفر شئونه، يتابعه عن قُرب لا يغفل ولا يأفل عنه لحظة، إذا استطعمه اطعمه، وإذا استسقاه سقاه، وإذا استكساه كساه، وإذا استأواه آواه، وإذا استهداه هداه، وإذا استنصره نصره، وإذا استكفاه كفاه، وإذا استعانه اعانه، وإذا دعاه أجابه، وإذا عبدَّه أحبه وقرّبه وأحياه حياة طيبة، وإذا استعاذه أعاذه، وإذا استغاثه أغاثه، وإذا أعتصم به عَصَمَه، وإذا وقع في ظلمة من الكفر أو الشرك أو المعصية أخرجه من الظلمات إلى النور، فأخرجه إلى الإيمان والتوحيد والطاعة، وإذا همَّ أن يفشل تداركه برحمته فأنقذه ﴿**إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا ..**﴾[١٠٧] وقال تعالى ﴿**اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ**﴾[١٠٨].

وفي الآيتين في ختام سورة البقرة اللَّتين هما من كنزٍ تحت العرش[١٠٩] قال ﴿**أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾[١١٠] وشرحهما ابْنُ تَيْمِيَّة فقال في آخر شرحه: وَتَوَسَّلُوا فِي خِلَالِ هَذَا الدُّعَاءِ ﴿لاَ تُؤَاخِذْنَا-لا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا-وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِه-اعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ﴾ إِلَيْه بِاعْتِرَافِهِمْ أَنَّهُ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَوْلَى لَهُمْ سِوَاهُ فَهُوَ نَاصِرُهُمْ، وَهَادِيهِمْ وَكَافِيهِمْ وَمُعِينُهُمْ وَمُجِيبُ دَعَوَاتِهِمْ وَمَعْبُودُهُمْ.[١١١]

ثم توسلوا بذلك أيضًا إلى أن ينصرهم على الكافرين نصراً يتضمن التمكين للدّين والإخراج من الظلمات إلى النور، ويُخطيء بعض الناس فيظن أن النصر فقط في غَلبة العدو في المعركة، بل نيلُ

---

١٠٥ يونس:٣٠.

١٠٦ الأنعام: ٦١-٦٢.

١٠٧ آل عمران: ١٢٢.

١٠٨ البقرة: ٢٥٧.

١٠٩ كما في الحديث الذي رواه أحمد والطبراني والبيهقي عن حذيفة، ورواه أحمد أيضًا عن أبي ذر، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٠٦٠).

١١٠ البقرة: ٢٨٦.

١١١ مجموع الفتاوى ج١٤ صـ ١٤٠.

الشهادة نصرٌ عظيم، ودفع المضرة في الدنيا والدين نصر، وهكذا، ولا يكون شيئ من ذلك إلا بتولي مولاهم الحق لهم.

وسيأتي زيادة بيان لمعنى النصر في قوله ﴿**هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ** ..﴾.

نأخذ مثلاً من معرفة الصَّحابة الأخيار بمولاهم الْحَقّ ودِقَّة فهمهم لأسمائه وصفاته، وذلك من وصية الزُّبَيْر بْن الْعَوَّام –يوم استشهاده– لابنه عَبْد اللَّه:

قَالَ عَبْدُ اللَّه: فَجَعَلَ يُوصِينِي بِدَيْنِه وَيَقُولُ: يَا بُنَيِّ إِنْ عَجَزْتَ عَنْهُ فِي شَيْءٍ فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ مَوْلَايَ قَالَ: فَوَاللَّه مَا دَرَيْتُ مَا أَرَادَ حَتَّى قُلْتُ: يَا أَبَتِ: مَنْ مَوْلَاكَ؟ قَالَ: اللَّهُ. قَالَ: فَوَاللَّه مَا وَقَعْتُ فِي كُرْبَةٍ مِنْ دَيْنِه إِلَّا قُلْتُ: يَا مَوْلَى الزُّبَيْرِ: اقْضِ عَنْهُ دَيْنَهُ فَيَقْضِيه. قَالَ عَبْدُ اللَّه بْنُ الزُّبَيْرِ: فَحَسَبْتُ مَا عَلَيْهِ مِنْ الدَّيْنِ فَوَجَدْتُهُ أَلْفَيْ أَلْفٍ وَمِائَتَيْ أَلْفٍ.

وَكَانَ الزُّبَيْرُ اشْتَرَى الْغَابَةَ (في عوالي المدينة) بِسَبْعِينَ وَمِائَةِ أَلْفٍ، فَبَاعَهَا عَبْدُ اللَّه بِأَلْفِ أَلْفٍ وَسِتِّ مِائَةِ أَلْفٍ. ثُمَّ قَامَ فَقَالَ: مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ حَقٌّ فَلْيُوَافِنَا بِالْغَابَةِ.

فَلَمَّا فَرَغَ ابْنُ الزُّبَيْرِ مِنْ قَضَاءِ دَيْنِه، قَالَ بَنُو الزُّبَيْرِ: اقْسِمْ بَيْنَنَا مِيرَاثَنَا. قَالَ: لَا وَاللَّه لَا أَقْسِمُ بَيْنَكُمْ حَتَّى أُنَادِيَ بِالْمَوْسِمِ أَرْبَعَ سِنِينَ: أَلَا مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ دَيْنٌ فَلْيَأْتِنَا فَلْنَقْضِه، فَلَمَّا مَضَى أَرْبَعُ سِنِينَ قَسَمَ بَيْنَهُمْ ... قَالَ: فَكَانَ لِلزُّبَيْرِ أَرْبَعُ نِسْوَةٍ، وَرَفَعَ الثُّلُثَ (الوصية) فَأَصَابَ كُلَّ امْرَأَةٍ أَلْفُ أَلْفٍ وَمِائَتَا أَلْفٍ.

قَالَ عَبْدُ اللَّه: وَإِنَّمَا كَانَ دَيْنُهُ الَّذِي عَلَيْهِ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَأْتِيه بِالْمَالِ فَيَسْتَوْدِعُهُ إِيَّاهُ فَيَقُولُ الزُّبَيْرُ لَا وَلَكِنَّهُ سَلَفٌ فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْهِ الضَّيْعَةَ، وَمَا وَلِيَ إِمَارَةً قَطُّ وَلَا جِبَايَةَ خَرَاجٍ وَلَا شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي غَزْوَةٍ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[١١٢].

قال الحافظ: قوله (لَا وَلَكِنَّهُ سَلَف) أي ما كان يقبض من أحدٍ وديعة إلا إن رضيّ صاحبُها أن يجعلها في ذمته، وكان غرضه بذلك أنه كان يخشى على المال أن يضيع فيُظَن به التقصير في حفظه فرأى أنْ يَجعله مضمونًا فيكون أوثقَ لصاحب المال، وأبقى لمروءته زاد ابن بطال: وليطيب له ربح ذلك المال.

والقصة بطولها فى البخارى. كِتَاب فَرْضِ الْخُمُسِ – بَاب بَرَكَةِ الْغَازِي فِي مَالِه حَيًّا وَمَيِّتًا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوُلَاةِ الْأَمْرِ. فليراجعها من أراد.

لما قال الزُّبَيْر: "فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ مَوْلَايَ قَالَ: فَوَاللَّه مَا دَرَيْتُ مَا أَرَادَ. لأن لفظ "المَـوْلَى" لفظ مشترك يُطلق على الرَّبّ وعلى العبد، ويأتى بمعنى الحليف، والناصر، والصاحب، وابن العمّ، والجار ... .

---

١١٢ رواه البخاري بَابُ بَرَكَةِ الغَازِي فِي مَالِهِ حَيًّا وَمَيِّتًا، مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوُلاَةِ الأَمْرِ.

انظر إلى معرفة ذلك الصحابيّ الحواريّ وثقته بمولاه الحقّ الذى يتولاه ويتولى جميع أموره فى دنياه وأُخراه، فى حياته ومماته نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِير، ثم انظر كيف تولاه مولاه بالبركة فى أمواله حتى قضى دينه، وورثت أزواجه الأربع، كلٌ منهن مليونًا ومائتى ألف.

فلنأخذ مثالاً على عظمة تولي المولى الحق لعبده المؤمن:

قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ﴾[١١٣].

وعند مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه ﴿حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنْ الْجَبَلِ﴾ وفي رواية القَاسِمُ عند الترمذي ﴿حَتَّى إِنَّ اللُّقْمَةَ لَتَصِيرُ مِثْلَ أُحُدٍ﴾[١١٤]. وفي رواية[١١٥] ﴿حتى يوافى بها يوم القيامة وهي أعظم من أُحُدٍ﴾.

قلتُ: لقمة أو تمرة من كسب طيب لا يكاد يشعر بها المتصدق، يفاجأ بها يوم القيامة أعظم من أُحد في وقت هو أحوج إلى حسنة –آمنت بمولايّ الحق- رَزَقَه أبتداءًا بها وأَلْهمَه التصدقَ بها على أهلها – مسكين أو يتيم- ثم رباها كما رأيت ثم وافاه بها يوم الحساب. ألا هو المولى الحق، نِعْمَ الْمَوْلَى.

ومثل هذه الصدقة من دعا إلى الله ولو بموعظة يسيرة فاهتدي بها خلْق فانتشرت وذاعت وتوارثها أبناؤهم وأحفادهُم، إلى ما شاء الله، فأحصاه المولى وجعله للواعظ الأول، فما أسعده يوم القيامة عندما يُعاين عمله، و لم يكن يظن أن تبلغ موعظته ما بلغت. لكنه مولانا الحَقّ سبحانه.

ومن الأعمال ما يدقّ في ثقله جدًا حتى لا ينتبه له صاحبه، لكن موازين القسط تلتقطه وتُعظّم وزنه. قال تعالى ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**﴾[١١٦].

وفي الحديث الحسن ﴿سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفٍ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّه وَكَيْفَ قَالَ رَجُلٌ لَهُ دِرْهَمَانِ فَأَخَذَ أَحَدَهُمَا فَتَصَدَّقَ بِهِ وَرَجُلٌ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ فَأَخَذَ مِنْ عُرْضِ مَالِهِ مِائَةَ أَلْفٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا﴾[١١٧]. ولا أستطيع أن أتوسع أكثر من هذا في الأمثلة، ونجعلها بإذن الله عند شرح الاسمَيْن (الوليّ – المولى).

نعود إلى الآيتين:

---

١١٣ رواه البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه بَاب الصَّدَقَةِ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ.

١١٤ رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٩٠٢).

١١٥ قال الحافظ في الفتح: لإبن جرير من وجه آخر عن القاسم.

١١٦ الأنبياء: ٤٧.

١١٧ رواه النسائي وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٦٠٦).

﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ ..﴾[118].

هنالك تتفقد وتُعاين كل نفس نَفْعَ عملها وضرَّه أتمَّ معاينه كما سبق ولا حاجة للإعادة، وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقّ الذي لا بُدَّ لهم من الرجوع إليه، فالمؤمن على ما ذكرنا، أما الكافر والمشرك فالله مولاه ولاية مُلك وقهر ونفوذ مشيئة، وليس له من دون الله مولىً ولا وليّ ولا شفيع ولا نصير، فإلى النار.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ*ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾[119].

﴿الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ لا يستطيع أحد من العباد أن يخرج عن تقدير ربه، ولا في أدق أدق أمور حياته، فهو خاضع ذليل رغم أنفه، مقهورٌ لا يستطيع رَدَّ مِثْقَالَ ذَرَّة من أمره، وتفصيل ذلك في شرح اسمه تعالى القهار، لكن أوجز بعضه كما يلي:

١- لا حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلا بِاللهِ. هذه الكلمة كنزٌ تحت العرش[120]، ومعناها:

لا تحول لأي كائن من الكائنات (مَلَك-جن-إنس-جماد-نبات-حيوان) من وضْع إلى وضْع، ومن حال إلى حال إلا بالله، ولا قُدرة ولا أسباب على ذلك التحول إلا بالله، وبالتالي لن تكون كلمة ولا حركة ولا سكنة ولا إرداة إلا بالله. فمن فَقُه هذه الكلمة سعد في الدارين. فهو قهر على القلوب كما هو قهر على الأبدان.

٢- كَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ (كما في حديث عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ خَنْبَشٍ[121]) وهي الكلمات القدريات، لأن الفاجر لا يتوقف عند كلمات الله الشرعيات بل يجاوزها.

فلن يستطيع رئيس أمريكي أو أوربي أو صيني أو غيره أن يتخذ قراراً بالظلم أو بالعدل إلا وهو مُقدَّر بالكَلِمَاتِ التَّامَّاتِ.

٣- من عقيدة أهل السنة والجماعة أن أفعال العباد مخلوقة. الله خالقها وخالق كل شيء. فلن يفعل الأبرارُ ولا الفجارُ شيئًا إلا وهو مخلوق، ولا خالق إلا الله، فالعبد مقهور ذليل مهما بلغ، وخَلْقُه الفعل: هو التيسير له وتهيئتهُ لأسبابه ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[122].

---

١١٨ يونس: ٣٠.

١١٩ الأنعام: ٦٢.

١٢٠ كما في حديث أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْه- المتفق على صحته.

١٢١ عند أحمد والطبراني، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٤).

١٢٢ الشمس: ٨.

٤- ﴿أَكْثَرُ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْلِفُ لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ﴾[١٢٣] وقال تعالى ﴿**وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**﴾[١٢٤] وقال ﴿ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ﴾[١٢٥] وقال ﴿مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وهو مُعلق بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ وَالْمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ، يَرْفَعُ أَقْوَامًا، وَيَخْفِضُ آخَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[١٢٦].

﴿**وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً**﴾ الحفظة نوعان: الأول: الكِرَام الكَاتبون، وهم الذين يحفظون أعمال العبد ويكتبونها ويشهدون يوم الدّين له وعليه. قال تعالى ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**﴾[١٢٧] وقال ﴿**مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾[١٢٨].

الثاني: دوريات حراسة تتعاقب على حفْظه بما قَدَّر الله، فلا يخرج عن ذَرَّة من المقدَّر، قال تعالى ﴿**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ**﴾[١٢٩]. فانظر إلى أي يوم مرَّ عليك وإلى أحداثه وأقداره من أوله إلى آخره وأعلم أن ذلك بحفظهم لك بأمر الله. وأضرب لك مثلاً للتقريب: ألتقت سيارتان مُسرعتان متقابلتان فجأة في طريق ضيق، وتيقن كل من السائقين أنَّهُ التصادمُ وحتفه أكيد، وأغمض كلٌ منهما عينيه مستسلمًا، فإذا بالسيارَتَيْن تمران بلا اصطدام، وما ذاك إلا بحفظ الـــمُعَقِّبَات بأمر الله –ألا فليعلم كل ظالم وكل طاغية وكل جبار عنيد أنه أحْقر من أن يُتمَّ أَمْرًا لم يشأه الله، وأحقر من أن يستقيل من أمر شاءه الله، بل أَمْرُهم كما قال تعالى ﴿**فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ٤٥ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾[١٣٠]، وقال ﴿**وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا**﴾[١٣١]، وقال ﴿**وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ**﴾[١٣٢].

---

١٢٣ رواه البخاري عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه.

١٢٤ الأنفال: ٢٤.

١٢٥ رواه مسلم عن عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه.

١٢٦ رواه أحمد وابن ماجه والحاكم عن النَّوَّاسُ بْنُ سَمْعَانَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْه–، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٧٤٧).

١٢٧ الإنفطار: ١٠:١٢.

١٢٨ ق: ١٨.

١٢٩ الرعد: ١١.

١٣٠ القلم: ٤٥-٤٦.

١٣١ الفرقان: ٢٠.

١٣٢ الأنفال: ٥٩.

﴿**حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ**﴾ فحينئذ يتخلى عنه الحفظة المعقبات ويتركونه لرسل الله المعاونين لملك الموت يتوفونه في اللحظة الـمُقدرة والمضْجع المقدر بلا تفريط.

﴿**ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ**﴾ فلا بد لهم من الرجوع إلى مولاهم الحق الذي تولاهم (هدايةً وكفايةً ونصراً وإعانةً وإجابةً للدعوات وتيسيراً لليُسرى وتقبلاً للصالحات وتنميتها وتربيتها كما سبق، وتَسلْسُل الحسنات وقطعًا لتسلسل السيئات، وغير ذلك ...).

تولاهم من البداية في الحياة الدنيا إلى النهاية في الجنة، وأسوق أمثلة من تولي الله لعبده المؤمن في السنة الـمُطَّهرة:

قَالَ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنْ الدُّنْيَا وَهُوَ يحبه، كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ مِنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ تَخَافُونَهُ عَلَيْهِ﴾[١٣٣].

قَالَ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُشَدَّدُ عَلَيْهِمْ، لأَنَّه لا تُصيبُ الـمُؤْمِنِ نَكْبَةٌ من شَوْكَةٍ فما فوقها، وَلَا وَجَعٌ إِلَّا رَفَعَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ خَطِيئَةً﴾[١٣٤].

قَالَ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿إِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ لَهُ الْمَنْزِلَةُ عِنْدَ اللهِ فَمَا يبلَغَهَا بِعَمَلٍ، فَلا يَزَالُ اللهُ يَبْتَلِيه بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ إياها﴾[١٣٥].

قَالَ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿إِنَّ اللَّهَ تعالى يُنَزِّلُ الْمَعُونَةَ عَلَى قَدْرِ الْمَئُونَةِ، وَيُنَزِّلُ الصَّبْرَ عَلَى قَدْرِ الْبَلَاءِ﴾[١٣٦].

قَالَ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ اكْفِنِي أَوَّلَ النَّهَارِ بِأَرْبَعِ رَكَعَاتٍ، أَكْفِكَ بِهِنَّ آخِرَ يَوْمِكَ﴾[١٣٧].

قَالَ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَبْتَلِي عَبْدَهُ بِالسُّقْمِ حَتَّى يُكَفِّرَ كُلَّ ذَنْبٍ﴾[١٣٨].

قَالَ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿إِنَّ الرَّجُلَ لَتُرْفَعُ دَرَجَتُهُ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: أَنَّى لِي هَذَا؟ فَيُقَالُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ﴾[١٣٩].

---

١٣٣ أخرجه أحمد عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ، والحاكم عن أبي سعيد، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٨١٤).

١٣٤ عن عَائِشَةَ أخرجه أحمد وابن سعد والحاكم والبيهقيّ في الشعب، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٩٣٥).

١٣٥ أخرجه الحاكم وابن حبان عن أبي هريرة، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٦٢٥).

١٣٦ أخرجه ابن عديّ في الكامل وابن لال في مكارم الأخلاق عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٩١٩).

١٣٧ أخرجه أحمد عن عقبة بن عامر، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٩١٣).

١٣٨ أخرجه الطبراني عن جُبير بن مطعم، والحاكم عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٨٧٠).

١٣٩ أخرجه أحمد وابن ماجه والبيهقي عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٦١٧).

قَالَ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ...الحديث﴾[١٤٠]. وغير ذلك كثير.

١٤٠ أخرجه مالك وأحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم عن بلال بن الحارث، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٦١٩).

الإلَــٰه الْحَقّ[١٤١]:

إِلَــٰه على وزن فِعال، وهذا الوَزْن كثير في المشتَملاَت على الأشياء مثل: كتاب-فِراش-خمار-رداء-بناء-غِراس، فمنها بمعنى المفعول: كتاب بمعنى المكتوب، غِراس بمعنى المغروس، بناء بمعنى المبْنى، وكذلك إِلَــٰه بمعنى المألوه الذي يستحق أن يكون مألوهًا حيث تألهه القلوب حُبًا خالصًا وذُلاً صادقًا بأعظم ما يكون من المحبة والذلِّ والتعظيم، وهو يشتمل على تألُّهِ (غاية الحبِ والذلِّ والتعظيم) جميع الكائنات (أحياء-نباتات-جمادات) لا يخرج منها شيء، فالمألوه: الذي يكون التألُّه له ويقع عليه، أما الإِلَــٰه فهو المستحق أن يُؤْله فيُعبد (لما له من الأسماء الحسنى وصفات الكمال ونعوت الجلال)، وقع ذلك أو لم يقع. ولقد حدث أن تألَّهَت الشياطين وأغبياء الجن والإنس، تألهوا غيَره بغير حق لأنه عادم لصفات الكمال وله مَثَلُ السَّوْءِ ، ولله الْمَثَلُ الأَعْلَىَ في السماوات والأرض، وجائت آيات الكتاب المجيد مستدلة على ذلك بذكر مفعولات الله الدالة على أفعاله الدالة على كمالاته كما سيأتي تفصيلا، كما جاءت الرسل عليهم السلام بـــــــ [تَحقِيقُ قَوْلِ " لَا إِلَــٰه إِلَّا اللَّهُ " وَهُوَ إِثْبَاتُ تَأْلِيه الْقَلْب لِلَّه حُبًّا خَالِصًا وَذُلًّا صَادِقًا. وَمَنْعُ تَأْلِيهِه لِغَيْرِ اللَّه، وَبُغْضُ ذَلِك وَكَرَاهَتُهُ. فَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ. وَيُحِبُّ أَنْ يَعْبُدَهُ، وَيُبْغِضُ عِبَادَةَ غَيْرِهِ وَيُحِبُّ التَّوَكُّلَ عَلَيْهِ وَخَشْيَتَهُ وَدُعَاءَهُ وَيُبْغِضُ التَّوَكُّلَ على غَيْرِهِ وَخَشْيَتَهُ وَدُعَاءَه]أ.هـــ[١٤٢].

قال ابْنُ الْقَيِّم:

فالشرك والتعطيل مبنيان على سوء الظن بالله تعالى، ولهذا قال إبراهيم إمام الحنفاء لخصمائه من المشركين ﴿**أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[١٤٣]، وإن كان المعنى: ما ظنكم به أن يعاملكم ويجازيكم به، وقد عبدتم معه غيره وجعلتم له ندًا؟ فأنت تجد تحت هذا التهديد: ما ظننتم بربكم من السوء حتى عبدتم معه غيره؟ فإن المشرك إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يُدبر أمر العالم معه: من وزير، أو ظهير، أو عون، وهذا أعظم التنقيص لمن هو غنيٌّ بذاته عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقيرٌ إليه بالذات. وإما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشريك. وإما أن يظن بأنه لا يعلم حتى يعلمه الواسطة، أولا يرحم حتى يجعله الواسطة يرحم، أو لا يكفي عبده وحده، أو لا يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده الواسطة. كما يشفع المخلوق عند المخلوق، فيحتاج أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع وانتفاعه به وتكثره به من القلة، وتعززه به من الذلة، أو لا يجيب

---

١٤١ ورد القرآن خمس مرات، الحج: ٦، لقمان: ٣٠، النور: ٢٥، الحج:٦٢، الكهف: ٤٤.

١٤٢ مجموع الفتاوى ج١٤ صـــ ٢٨٠.

١٤٣ الصافات: ٨٦-٨٧.

دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن ترفع تلك الحاجات إليه، كما هو حال ملوك الدنيا، وهذا أصل شرك الخلق. أو يظن أنه لا يسمع دعاءهم لبُعْدِه عنهم حتى يرفع الوسائط إليه ذلك، أو يظن أن للمخلوق عليه حقًا فهو يقسم عليه بحق ذلك المخلوق عليه، ويتوسل إليه بذلك المخلوق، كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعز عليهم، ولا يمكنهم مخالفته، وكل هذا تنقص للربوبية، وهضم لحقِّها، ولو لم يكن فيه إلا نقص محبة الله تعالى، وخوفه ورجائه، والتوكل عليه والإنابة إليه من قلب المشرك، بسبب قسمته ذلك بينه سبحانه وبين من أشرك به، فينقص ويضعف أو يضمحل ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء بسبب صرف أكثره أو بعضه إلى من عَبَدَه من دونه لكفى في شناعته، فالشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه والتنقص لازم له ضرورة شاء المشرك أم أبى، ولهذا اقتضى حمده سبحانه، وكمال ربوبيته أن لا يغفره، وأن يخلد صاحبه في العذاب الأليم، ويجعله أشقى البَرِيّة، فلا تجد مشركا قط إلا وهو متنقص لله سبحانه، وإن زعم أنه يعظمه بذلك، كما أنك لا تجد مبتدعا إلا وهو متنقص للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن زعم أنه معظم له بتلك البدعة، فإنه يزعم أنها خير من السُّنَّة وأولى بالصَّوَاب، أو يزعم أنها هي السنة، إن كان جاهلا مقلدا، وإن كان مستبصرا في بدعته فهو مشاق لله ورسوله[١٤٤].

١٤٤ بتصرف يسير من إغاثة اللهفان، الضوء المنير ٥/١٣٥.

١- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ٥ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ٦وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾[١٤٥،١٤٦].

﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ لم يقل سبحانه: وإن ارتبتم في البعث، بل قال ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ للمبالغة في تنزيه أمر البعث عن شائبة وقوع الريب، والإشعار بأن الريب إن وقع فمن جهتهم هم لا من جهة ثبوت البعث، واعتبار استقرارهم فيه (في ريب) وإحاطته بهم لا ينافي اعتبار ضعفه وقلته لما أن ما يقتضيه ذلك هو دوام ملابستهم به لا قوته وكثرته[١٤٧].

إذا كان اليقين والطمأنينة ثباتًا واستقرارًا، فالريب ضدهما، وهو قلق واضطراب وانزعاج، والفطرة فيها أن لقاء الله حق، فإذا جاء الشك في هذا الحق حدث الريب والرُّجْز فهو شك مريب. ثم وجهت الآية الناس إلى ما يزيل ذلك الريب تمامًا. أولاً: بذكر خلق الإنسان من تراب، وذلك برهان تام على كمال علم الله وقدرته وحكمته، كما قال تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[١٤٨] فأيّ ريبٍ بعد ذلك في البعث؟ ثانيًا: بذكر أطْوَار خلق الإنسان من نُّطْفَة، وثالثًا: بذكر إنزال الماء على الأرض الهامدة فتنبت من كل زوج بهيج.

يقول ابْنُ الْقَيِّم: ومن نظر في الموجودات ببصيرة قلبه رآها كالأشخاص الشاهدة الناطقة بذلك، بل شهادتها أتم من شهادة الخبر المجرد لأنها شهادة حال لا يقبل كذبًا.

ويقول: فلا يتأمل العاقل المستبصر مخلوقًا حقَّ تأمُّله إلا وجده دالا على فاطره وبارئه، وعلى وحدانيته وعلى كمال صفاته وأسمائه، وعلى صدق رسله، وعلى أن لقاء الله حق لا ريب فيه. وهذه طريقة القرآن في إرشاد الخلق إلى الاستدلال باصناف المخلوقات وأحوالها على إثبات الصانع وعلى التوحيد والمعاد والنبوات. أ.هـ[١٤٩]

قلتُ: فالغفلة عن شهادة المخلوقات غفلة عن آيات الله، ومصيرها الخلود في النار، وإذنْ عَلَيَّ أن أُفصل هذه الآيات ما استطعت في ضوء ما بلغني من المعارف الحديثة. حتى يَنْتبه الغافل، ويتعلم الجاهل:

---

١٤٥ الحج: ٥:٧.

١٤٦ سيأتي بحث مستقل عن الإيمان بالآخرة بعد الانتهاء من بيان الآيات.

١٤٧ راجع تفسير الآلوسي عند تفسيره لهذه الآيات من سورة الحج.

١٤٨ الروم: ٢٠.

١٤٩ بدائع الفوائد ج٤.

﴿**ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ**﴾ يُال: نطف عَرقُه، و نَطَفت القِربَةُ، لأن قطرات العرق ضئيلة جدًا بالنسبة لماء الجسم، وكذلك القطرة من القِربَة صغيرة جدًا بالنسبة لمائها، وكذلك نُّطْفَة الرجل ما هي إلا نصف خلية لا يُرى إلا بالمكبرات الحديثة. وهي ﴿**سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ**﴾[١٥٠] وهي الـمُسماة بالحيّوان المنوي، الذي يختاره الله لتلقيح البويضة من بين ثلاثمائة مليون حيوان منوي في المتوسط في الدفقة الواحدة. فهو نُّطْفَة بالمعنى الذي سبق، فهل كان ذلك معلومًا لأهل الأرض زمن البعثة؟ كلا ﴿**قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾[١٥١] وهذه النُّطْفَة تحتوي على (٢٣) ثلاثة وعشرين جُسَيْمًا ملونًا (تُسمى: صبغيات الوراثة)، كل صبغ منها يحتوي على (٥٠٠٠٠) خمسين ألف ناسلة وراثية تقريبًا (چـينات الوراثة) ولم يكن ذلك معلومًا لأحد!! أما نُّطْفَة المرأة وهي البويضة فقُطرها يبلغ حوالي خُمس مليمتر، لِما تحمله من التغذية المطلوبة، وبها نفس العدد من الجُسيمات الملونة (كروموسومات) كلٌ منها يحمل أيضًا خمسين ألف ناسلة وراثية مثل نُّطْفَة الرَّجُل. فإذا تم التلقيح بين النُّطْفَتين نتجت النُّطْفَة الأَمْشَاج حيث تتزاوج ٢٣ كروموسوم من نُّطْفَة الرجل بثلاثة وعشرين مثلها من نُّطْفَة الأنثى (ويُسمى ذلك: الزيجوت)، وهذا التزاوج مُقَدّر بقَدرٍ مَقْدُور حيث يكون الجنين حاملاً لصفات أبويه إلى آدم وحواء، كما قال تعالى ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ**﴾[١٥٢]، وقال ﴿**مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ**﴾[١٥٣] لقد تحدد وتقرر تقادير خلق الجنين تمامًا بأختيار نُّطْفَة الرجل ونُّطْفَة الأنثى، فانظر إلى فاء التعقيب في قوله ﴿**فَقَدَّرَهُ**﴾ فهل كان ذلك معلومًا زمن البعثة؟ كلا.

إلَـٰه الذي خَلَق ذلك: له كمال القدرة وكمال العلم وكمال الخبرة وكمال الحكمة .. الله أكبر.

ثم لا تلبث تلك الخلية الأولى (النُّطْفَة الأَمْشَاج) أن تنقسم بِقَدرٍ إلى خليتين متماثلتين تمامًا، ثم إلى أربع، ثم إلى ثمان .. وهكذا، والسؤال: متى وكيف يبدأ الأنقسام، وكيف يتم؟

حيث الخلية الأولى أصبحت خليتين متماثلتين تمامًا للأولى بنفس الجُسيمات الملونة بنفس الچـينات الوراثية وهي بالملايين وبنفس التراكيب الذّرِّية؟ إجابة أهل الذكر (علماء الأَجنَّة): أن ذلك يتم وفق برنامج مركوز في تلك الچـينات. والسؤال: ماذا عمَّن يخلق .. ويخلق المليارات، والإجابة: كامل القدرة فلا يُعجزه شيء، كامل الخبرة فلا يدّق ولا يخفى عليه شيء، كامل العلم فلا

---

[١٥٠] السجدة: ٨.

[١٥١] الفرقان: ٦.

[١٥٢] القصص: ٦٨.

[١٥٣] عبس: ١٩.

يضل ولا ينسى ولا يجهل شيئًا، كامل الحكمة فلا يُخطيء في شيء، وهكذا له الكمال المنزه عن النقص والمثال فهو الحقّ.

قلتُ: فما بقيَّ فهو أكثر وأعظم .. فاذكر ذلك غفر الله لنا ولك.

تستمر الانقسامات حتى تتكون الكرة الجرثومية (الأصلية) (التوتة: مثل ثمرة التوتة بعد خمسة أيام، والتي يمتليء جوفها بسائل وتُدعى حينئذٍ: الكُرة الجرثومية) التي تدفعها قناة الرحم إلى الغشاء المخاطي المُبَطِّن لجدار الرحم فتنْغرِز فيه وحولها بُحيرة دم بالنسبة إلى حجمها، حيث يكون حجمها حينئذ ربع ملليمتر ($\frac{1}{4}$ مم)!! ويكون ذلك في اليوم السابع من تلقيح البويضة، وتستمر بُحيرة الدم هذه حتى الأسبوع الثالث عندما يتم الاتصال بينها وبين بعض الأوعية الرحمية (كمؤشر هام لتكون المشيمة في المستقبل). ولم يحدث هذا إلا بعد تمايز خلايا الكرة الجرثومية إلى طبقتين خارجية وداخلية. فأما الخارجية فهي خلايا بدون فواصل بين جُدرها، وتُسمى الخلايا المخلاوية الآكلة، ومهمتها قضم وهضم خلايا جدار الرحم وامتصاص الغذاء، وما يُسمى بلبن الرحم الذي تفرزه ١٥٠٠٠٠ غُدة رحمية.

وأما الطبقة الداخلية للجدار فمهمتها توصيل الغذاء للجنين داخل الكرة، ثم تتمايز خلايا الطبقة الخارجية إلى طبقتين، وكذلك الداخلية تتمايز إلى طبقتين، ولا يزال التمايز عاملاً في الجنين ﴿**خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ**﴾[١٥٤] حتى تنشأ براعم الأجهزة والأطراف والأعضاء المختلفة، وكل ذلك مودع ومُبرْمج في الـــچـــينات بتقدير تزامني عجيب يُثبت أن الله هو الحقّ كما تبيَّن ...

يبدأ طور العَلَقَة منذ اليوم الثامن من التلقيح ويستمر حتى اليوم العشرين تقريبًا، حتى بداية ظهور الكُتل البدنية من بداية التلقيح، ولفظة عَلَقَة تُطلق في اللُّغة على كل ما يَنْشب ويَعْلَق، ومن ذلك الدّودة أو الدّويبة في مياه البِرك، تعلق بجلْد الدواب التي تَرِد الماء للشُرب، فتمتص من دمائها للغذاء، وشَّماعة الملابس: معلاق وهكذا، فلما سُمِّيّ هذا الطَور عَلَقَة دلَّ على نوع تعلق، ومع المعارف الحديثة ثبت وجود أنواع من التعلقات.

أولها: تعلق الجنين في البداية بجدار الرحم بواسطة الخلايا الخارجية المخلاوية الآكلة كما سبق، والتي تنغرز فيه وتتصل مباشرة بالدم الغليظ في الجيوب الدموية الرحمية وتأخذ منه غذاءها وغذاء الجنين، أما بقية الكُرة الجرثومية تكون مُعلّقة بجدار الرحم بواسطة تلك الخلايا الآكلة.

ثانيها: عند تكون الغشاء المشيمي من الخلايا الخارجية الآكلة، والذي يتعلق به الجنين.

---

١٥٤ الزمر: ٦.

ثالثها: عند تكون المِعلاق أو السَّاق الموصلة الذي يظهر فيه في الأسبوع الثالث أول تكون للأوعية الدموية.

فوصف هذا الطَور بالعلقة هو أدق وأجدر وصف بهذه المرحلة، وهي مُبينة بالصور والتفاصيل يومًا بعد يوم تقريبًا في كتاب "خلق الإنسان بين الطب والقرآن" للدكتور محمد علي البار. ولا أستطيع نقله هنا لأنه يشق على الكثير.

عندما اطَّلع أحد أساتذة علوم الأَجنَّة على هذه اللفظة "العَلَقَة" وإطلاقها على هذا الطَور من أطوار الجنين تلقفها باهتمام بالغ، وأعاد طبعَ كتابه في ذلك، والمنشور بثمان لغات على العالم كله، وغيَّر اصطلاحه ووضع بدلاً منه: عَلَقَة "ALAKA"، وطبع ورقة بذلك لإلحاقها بالطبعات القديمة، إذ لا توجد في لغات العالم لفظة تقوم مقام لفظة "العَلَقَة " في أدّق وصف لهذا الطور من خلق الجنين.

قال تعالى ﴿**لَّـكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ** ..﴾[١٥٥] متضمنًا على علمه الذي لا يعلمه غيره. ﴿**ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ**﴾ تدخل العلقة نهاية الأسبوع الثالث طوْر الـــمُضغة دون أن يكون فارق زمني ولا فارق خِلقي كبير.

تظهر الكتل البدنية على كل جانب من محور الجنين بداية في اليوم العشرين أو الواحد والعشرين منذ بداية التلقيح، وتتوالى تلك الكتل في الظهور حتى ليبلغ عددها عند اكتمالها ٤٢ إلى ٤٥ كتلة على كل جانب في حوالي أسبوعين ولا يكاد ظهورها يكتمل حتى تبدأ الكتل التي في القمة تتمايز بحيث لا تكون جميع الكتل في مستوى واحد، وتُعرف الكتل الأربع الأولى العليا والتي في منطقة الرأس باسم الكُتل المؤخرية، تليها ٨ عنقية تليها ١٢ صدرية تليها ٥ قطنية تليها ٥ عَجُزية تليها ٨-١٠ عصعصية، وهذه الكتل هي الأساس الذي يقوم عليه الجهاز الهيكلي والعضلي، ويمكن معرفة عمر الجنين بمعرفة عدد الكتل البدنية، وفي هذه الفترة تظهر خمسة شقوق يقابلها نتوءات مماثلة، حتى لَيلِي كُلَّ شقٍّ نتوء، مكونًا بذلك خمسة أقواس تُعرف بالأقواس البلعومية، ومن القوس البلعومي الأول يخلق الله الفك العلوي والسفلي، وبذلك يبدأ تكون الوجه.

ولقد استطاعوا تصوير الأَجنَّة يومًا بعد يوم وعدِّ الكتل البدنية كما في الجدول الآتي:

---

[١٥٥] النساء: ١٦٦.

العُمر بالأيام	عدد الكتل البدنية	العمر بالأيام	عدد الكتل البدنية
٢٠	١-٤	٢٦	٢٠-٢٣
٢١	٤-٧	٢٧	٢٣-٢٦
٢٢	٧-١٠	٢٨	٢٦-٢٩
٢٤	١٣-١٧	٣٠	٣٤-٣٥
٢٥	١٧-٢٠		

ولا يذكر الجدول متى يتم بلوغ الكتل البدنية ٤٠-٤٥ كتلة، وذلك لأن ظهور هذه الكتل يتم في الوقت الذي تبدأ فيه الكتل القديمة بالتحول إلى عظم، وإلى عضلات ستكسو العظم، وذلك فيما بين الأسبوع الخامس والسابع. وهو الوقت الذي حدده الحديث الصحيح ﴿إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ —وفي رواية:بضع وأربعون-وفي رواية خمس وأربعون- لَيْلَةً بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا يَشَاءُ وَيُكْتُبُ الْمَلَكُ﴾[١٥٦].

وروى الشيخان عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿وَكَّلَ اللَّهُ بِالرَّحِمِ مَلَكًا فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ نُطْفَةٌ؟ أَيْ رَبِّ عَلَقَةٌ؟ أَيْ رَبِّ مُضْغَةٌ؟ فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهَا قَالَ: أَيْ رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الْأَجَلُ؟ فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ﴾[١٥٧].

أما تفاصيل مرحلة الـمُضغة فلا يمكن بسطها هنا لكن يمكن الرجوع إلى الكتاب الـمُشار إليه آنفًا: الفصل السابع عشر: الـمُضغة (الأسبوع الرابع). لكن أبرز ما في الجنين في هذه الفترة هي تلك الكتل البدنية، التي يسهل التعرف عليها من النظر إلى سطح الجنين الخارجي (مع تكبير الصورة) كقطعة لحم عليها آثار الأسنان وقد طبقت عليها فهي مُضغة. والعجيب أن الجنين في هذه الفترة (الأسبوع الرابع) لا يزيد حجمه عن حبة القمح بطول ٧-٨مم.

والجنين في هذا الطور تبدو رأسه وجذعه وبداية أطرافه، وتبدو الخياشيم (الأقواس البلعومية) تحت الرأس مباشرة، وهي تكوِّن فيما بعد الفكين وجزءًا من العُنق، ويبدو القلب بوضوح وهو يعمل ولكن تركيبه سيتغير تغيرًا كبيرًا في الأسابيع الـمُقبلة، وتظهر العين البدائية الأولى، ولو رجعت إلى الكتاب

---

١٥٦ رواه مسلم وغيره من حديث حُذَيْفَةُ بْنُ أَسِيدٍ.

١٥٧ متفقٌ عليه.

(خلق الإنسان بين الطب والقرآن) في مرحلة المضغة، ستجد صورة رائعة لجنين يبلغ من العمر ٤٢ اثنين وأربعين يومًا منذ بداية النُّطْفَة الأَمْشَاج بطول ١٥مم، وعيناه بارزتان جاحظتان متجهتان يسرة ويمنة، ونلاحظ بداية ظهور الأصابع، ويظهر في الوسط القلب البدائي وتحته الكبد، ويبدو المخ من خلال الجمجمة الرقيقة.

إن كل إنسان مطالب أن يتبصر في خلق نفسه. قال تعالى ﴿**وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ**﴾[١٥٨]، ومرحلة الـــمُضغة بها ما يكفي المستبصر العاقل فيُسلِّم بأن الله هو وحدَه الإِلَـــٰه الحقّ المستحِق لأن يؤله فيُعبد، لذلك أُسجل عدة نقاط سريعة عن تطورات ذلك الطور العجيب:

١- بظهور الكتل البدنية ينمو الجهاز العصبي للجنين من شق عصبي إلى قناة عصبية تنمو في منطقة الرأس لتكون المخ بنتوءاته المختلفة.

٢- تنمو انحناءات الرأس وتظهر فتحة الفم البدائية قريبة من صفيحة القلب، وذلك في جنين عُمره ثلاثة وعشرون يومًا (ذو عشر كتل بدنية) تكون فتحة الفم البدائية منفصلة عن القناة الهضمية الأمامية.

٣- في اليوم الثامن والعشرين تظهر حويصلة العين، أما في اليوم الثلاثين (جنين ذو ثمان وعشرين كتلة بدنية) فتظهر حويصلة السمع، كما يظهر في نفس الفترة تقريبًا لوح قُرص الشم، والحبل السُّرِّي الذي كان يُعرف بالمعلاق (في مرحلة العَلَقَة)، وأيضًا تظهر تكّون الأوعية الدموية في الجنين بوضوح وكذلك في خارج الجنين في الغشاء المشيمي، وسُرعان ما تظهر الغُرف المختلفة في القلب مكونة الأُذَيْنَيْن (متصلة دون فاصل) والبطينين (متصلين دون فاصل) وبصَلة القلب وجيبه، وتكون الدورة الدموية في الجنين تامة ومتصلة بالدورة المشيمية في رحم الأم، وبذلك يتمكن الجنين من أخذ غذائه من الأم.

٤- في هذه الفترة أيضًا تظهر بداية الجهاز التنفسي كشق من قاع البلعوم، ثم تظهر القصبة الهوائية وبُرْعُما الرئة، كما تظهر بدايات الجهاز البولي على مراحل.

٥- تنقسم الكتل البدنية إلى قسمين، وذلك في الأسبوع الرابع:

أ. قسم أمامي يجعل الله لخلاياها القُدرة على التشكل فيجعل الله منها خلايا مُكونة للألياف، أو خلايا مُكونة للغضاريف، أو خلايا مُكونة للعظام، وتنمو خلايا هذه الكتلة من كل جانب لتلتقي أمام القناة العصبية وبذلك تتكون الفقرات.

---

١٥٨ الذاريات: ٢١.

ب.قسم ظهري: وهذه الكتلة من الخلايا تظهر بعد تكون الفقرات الأولية، ثم تتمايز إلى طبقتين: خارجية وتكون الأدمة، وطبقة ما تحت الجلد. وداخلية وتكون مختلف عضلات الهيكل، وخاصة تلك المحيطة بالفقرات والأضلاع، وتظهر هذه العضلات لتكسو العظم في الأسبوع السادس والسابع، بينما تظهر العظام ذاتها في الأسبوع الخامس والسادس. قال تعالى ﴿**فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾[١٥٩].

أقول: لا يتوقف عاقل بعد هذا عن الاستسلام لله مقرًا بأنه الحقّ، وأن السَّاعة حق، وأن لقاءه حق، وأَنه يُحْيِيَ الْمَوْتَى، وأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير.

أما علماء الأَجنَّة الذين يُقدمون لنا هذا كجزء من معارفهم الحديثة ثم هم لا يؤمنون، ﴿**وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ**﴾[١٦٠]، فهؤلاء من الذين ﴿**يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**﴾[١٦١]، ونحن نعلم أن الله يهدي من يشاء بفضله، ويُضل من يشاء بعدله.

والمقام لا يتسع لبسط ذلك، ويكفيك قوله تعالى ﴿**وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ**﴾[١٦٢].

لقد وجدنا الخلايا تنقسم (وهي عجيبة) وتتمايز (وهذه عجيبة ثانية) وتتشكل وتتكتف في مواضع محددة (مثل الكتل البدنية) وتتمحور وتتجه ... (وهذه عجائب أخرى) حتى نرى الجنين (١٥مم) وقد اكتمل بهيكله وعضلاته وبراعم أجهزته وأعصابه، ودورته الدموية من وإلى المشيمة، وتنفسه وهضمه وبوله وغير ذلك من العين والأذن وغيرها، وكل ذلك من خلية واحدة !! سبحان الخلاق العظيم. إنه قدير حقّ القدير، حكيم حقّ الحكيم، عليم حقّ العليم، لطيف حقّ اللَّطيف، خبير حقّ الخبير، وغير ذلك من صفات الكمال، أي أن الله هو الحَقّ كما سبق بيانه.

﴿**مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ**﴾ أختار كثير من الفسرين أن المُّخَلَّقَة وغير المُّخَلَّقَة هي المضغة، وقال بعضهم: إن المُّخَلَّقَة هي المصورة التي تم خلقها، وغير المُّخَلَّقَة هي غير المصورة، كما قال ابن عباس: غير مُّخَلَّقَة: غير تامة الخلق. والحكمة في ذلك ﴿**لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ**﴾ فيُظهر الله تعالى ما في الأرحام ما يُبين به تلك الأطوار والمراحل، التي يتكرر ذكرها في الكتاب حُجة على ثبوت الكمال لله، وأن الساعة حق، والبعث حق، والنبيين حق. لكن في ضوء المعارف الحديثة وما تم اكتشافه من

---

١٥٩ المؤمنون: ١٤.

١٦٠ الإنشقاق: ٢١.

١٦١ الروم: ٧.

١٦٢ الأنفال: ٢٣.

الأسرار والحقائق، وجد الباحثون من أهل الاختصاص أنواعًا من ﴿**مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ**﴾ وهم في ذلك مجتهدون قد يُصيبون وقد يُخطئون.

منها: أن الكرة الجرثومية (الأصلية) كما سبق: بها خلايا خارجية لا يتخلق منها الجنين وهي فقط في التعلق بجدار الرحم، وتغذية الجنين، وبها خلايا داخلية هي التي يتخلق منها الجنين، فعلى ذلك تكون ﴿**مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ**﴾ عائدة على مرحلة النُّطْفَة كما رأى ذلك بعض المفسرين.

ومنها: في طور الـــمُضغة وما بعدها توجد خلايا غير متميزة، وهي خلايا عميمة وحميمة ولها قُدرة بأمر بادئها وخالقها على التشكل والتحول إلى خلايا متمايزة لتكوين العظام أو لتكوين خلايا الدم الحمراء أو البيضاء، أو عندما تلتئم الكسور والجروح، وتلعب دورًا هامًا في مراحل الانسان المختلفة (جنين-طفل-بالغ-كبير) فهذه الخلايا غير المتميزة هي الخلايا غير المخلقة، أما المتميزة فهي مُخلقة.

يقول الدكتور ليزلي أرى: في الجنين تتمايز الخلايا على حسب برامج زمنية مختلفة، فمنها ما يتمايز (يتخلق) بسرعة ويسير في طريقه حثيثًا إلى نهايته المحددة المرسومة له (الـــمُقدَّرة)، ومنها ما يسير ببطء في هذا التمايز، ومنها ما يتوقف بعد المسير ثم يواصل سير التمايز، وتبقى مجموعة من هذه الخلايا غير متمايزة إلى آخر العمر، وتُشكل بذلك الاحتياطي الذي يمكن أن يُطلب في أي لحظة.

ومنها: أن طور المضغة يمر بمرحلتين: الأولى حيث لم يتشكل أي عضو أو أي جهاز، وأسميناها مرحلة المضغة غير المخلقة. الثانية حيث تم فيها تمييز الأجهزة المختلفة، وأسميناها مرحلة المضغة المخلقة.

راجع كتاب: مع الطب في القرآن للدكاترة عبد الحميد دياب، وأحمد قرقوز. حيث اعتبرا أن مرحلة المضغة تبدأ من الأسبوع الثالث وتكون في هذه المرحلة غير مميزة حتى نهاية الأسبوع الرابع، ويبدأ التمايز في بداية الأسبوع الخامس وهو ما يؤدي إلى ظهور الأعضاء والأجهزة، وبذلك يكون قبل مرحلة التمايز هو غير المخلقة، وما بعد التمايز هو المخلقة.

قلتُ: فهل يبقى بعد ذلك ريب من البعث، ومن أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ؟!! وهل يبقى ريب من أن القرآن تنزيل من رب العالمين الرحمن الرحيم الحكيم العليم؟!!

بعد أن تبين أنه متضمن على علم الله الذي لا يعلمه غيره، ومن ذلك أطوار خلق الانسان، وقد علمنا أن البشرية لم تكتشف ذلك يقينًا إلا في بداية القرن العشرين ﴿**قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي**

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[١٦٣] **﴿لَـكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ..﴾**[١٦٤] **﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الأفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ ..﴾**[١٦٥].

- **﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾**[١٦٦] بتناول هذه أيضًا في شيء من ضوء المعارف الحديثة وباختصار:

إن هذه الأرض الهامدة الميتة التي لا نبت فيها ولا حركة في حُبيباتها الترابية، تحتوي على مخلوقات بغير حصر: بكتيريا- فطريات- طحالب- بذور-سيقان أرضية- بصلات-بُصيلات-حويصلات الديدان- بويضات حشرات، هذا بالإضافة إلى حُبيبات التربة ومكوناتها المعدنية والأيونية، فإذا نزل عليها الماء يكون ما يلي:

١- تبدأ حويصلات الديدان وبويضاتها في النَّشاط، وتنبت الجراثيم وتتحرك، وتنشط الديدان الأرضية في شَقِّ الأنفاق الأرضية وابتلاع كميات كبيرة من التربة المتلاصقة واخراجها بعد ذلك مُفككة، فتربو التربة (تنتفخ)، ومثال هذا عند وضع الخميرة في العجين، فتبدأ الخميرة في نشاطها الحيوي ويزداد حجم العجين حتى يفيض عن الإناء، وهذه واحدة من آلاف العمليات المشابهة التي تحدث في التربة عند نزول الماء.

وتلك الكائنات تتواجد في نفس التربة، والعلاقة بينها إما تعادلية وإما تعاونية، أو تكافلية أو تنافسية تضادية، حيث يتم في النهاية إعداد وتمهيد التربة لإمداد النبات بالأقوات اللازمة، حيث يتم هدم وتكسير المركبات المعقدة الموجودة في التربة إلى مواد وعناصر سهلة الامتصاص.[١٦٧]

٢- تتحرك البصلات والبصيلات والدرنات والسيقان الأرضية والحبوب والبذور، كلها تسري فيها الحياة فتتحرك وتتحرك بها التُربة.

٣- حُبيبات التربة الزراعية (لا يزيد قُطر أكبر حبيباتها عن ٠,٠٠٣مم) تتركب من شرائح أو صفائح معدنية، تكون كلها هامدة ساقطة على بعضها، فإذا نزل عليها الماء بما يحمل من شُحنات كهربية (من السُّحب التي نزلت منها، ثم باحتكاكها بالهواء أثناء تساقطها) فإن تلك الشحنات تنتقل إلى صفائح الحبيبات الترابية فتتنافر فيما بينها (لأنها تحمل شُحنة من نوع واحد) فتهتز الصفائح مُتباعدة عن بعضها

---

١٦٣ الفرقان: ٦.

١٦٤ النساء: ١٦٦.

١٦٥ فصلت: ٥٣.

١٦٦ الحج: ٥.

١٦٧ راجع كتاب: إعجاز النبات في القرآن الكريم. إعداد: دكتور نظمي لوقا صـــ ٤٩-٥٠.

البعض، ويتخللها الماء أكثر، فيكبر حجم الـــحُبيبة إلى عشرة أضعاف حجمها الطبيعي، فتربو بعد اهتزازها وتكون مُستعدة للإنبات، وسُميت هذه الاهتزازة: اهتزازة براون (نسبة إلى مكتشفها):

أقول: أولاً: أنَّى للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمثل هذه المعلومات، ولم يكن عنده معامل أبحاث ولا مجاهر مُكبرة، ولا مراجع، بل لم يكن يقرأ ولا يكتب، ولم يكن في زمنه من أهل الأرض من يعرف من ذلك شيئًا .. ألا فاعلم أيها الـــمُكذب أن القرآن حق، وأن مصيريك إلى الخلود في النار إن لم تتب.

ثانيًا: لا يُماري ولا يتردد العقلاء بعد هذه الـــحُجج والبراهين أن يقرُّوا بأن الله هو الحقّ، وأن كل ما يُنسب إليه حق، كمال القدرة- إحياء الموتى- حقيقة البعث- لقاء الله- الرسل والنبيون ...

ثالثًا: لقد تكرر في الكتاب والسنة الاستدلالُ بخلق الجنين أطوارًا، وبإحياء الأرض بعد موتها، على إثبات المطالب العالية، وهي (**التوحيد والنبوات والمعاد**). ومن ذلك:

قال تعالى ﴿**أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى٣٦أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى٣٧ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى٣٨فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى٣٩أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى**﴾[١٦٨] فلننظر في طريقة استدلال السلف كمثال:

يقول ابْنُ الْقَيِّم: فمن لم يتركه وهو نُطْفَة سُدى، بل قلَّب النُّطْفَة، وصَرَّفها حتى صارت أكمل مما هي وهي العلقة، ثم قلب العلقة حتى صارت أكمل مما هي، حتى خلقها فسوى خلقها فدبرها بتصريفه وحكمته في أطوار كمالاتها، حتى انتهى كمالها بشرا سويا، فكيف يتركه سُدى لا يسوقه إلى غاية كماله الذي خُلق له، فإذا تأمل العَاقِل البَصيرُ أحوالَ النُّطْفَة من مبدئها إلى منتهاها دلته على المعاد والنبوات، كما تدله على إثبات الصانع وتوحيده وصفات كماله فكما تدل أحوال النُّطْفَة من مبدئها إلى غايتها على كمال قدرة فاطر الإنسان وبارئه فكذلك تدل على كمال حكمته وعلمه وملكه، وأنه الملك الحق المتعالى عن أن يخلقها عبثا ويتركها سُدى بعد كمال خلقها.أ.هـــ[١٦٩]

قال تعالى ﴿**وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**﴾[١٧٠] انظر في قوله ﴿**لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**﴾ مجرد السماع يكفي، لوضوح الآية أكثر من وضوح الشمس في رابعة النهار، وهي آية إحياء الأرض بالماء بعد موتها.

---

١٦٨ القيامة: ٣٦: ٤٠.

١٦٩ بدائع الفوائد ج٤ صـــ ١٦٥-١٦٦.

١٧٠ النحل: ٦٥.

٣- وقال ﴿**فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[١٧١]

وقال ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[١٧٢]

وقال ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[١٧٣].

وغير ذلك كثير.

عَنْ أَبِي رَزِينٍ الْعُقَيْلِيِّ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه: كَيْفَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى؟ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ فِي خَلْقِه؟ قَالَ ﴿أَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي أَهْلِكَ مَحْلًا؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَ ﴿أَمَا مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خَضِرًا﴾ قُلْتُ: بَلَى. قَالَ ﴿ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ مَحْلًا﴾ قُلْتُ: بَلَى.قَالَ ﴿فَكَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى، وَذَلِكَ آيَتُهُ فِي خَلْقِهِ﴾[١٧٤].

وفي الآيات ﴿**إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ** ...﴾ نَصلُ في آخرها إلى المطالب العالية بقوله ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ**﴾.

﴿**ذَلِكَ**﴾: يشير إلى خلق الإنسان من تُراب ثم أطوار خلق الجنين ثم إحياء الأرض وانباتها من كل زوج بهيج.

﴿**بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ**﴾: سبق بيانها بأنه هو الإِلَـٰه الحق وحده لا شريك له. لانفراده بصفات الكمال، وما سواه فهو عادم لصفات الكمال، وله مَثَلُ السوء، وأزيدها بيانًا بذكر مثال: بالعجل الذي اتخذته بنو اسرائيل وهو رمز الغباء والبلادة، ولا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا، ولا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً، فهو عادم لصفات الكمال ليس له منها ذَرَّة من نصيب، وهو عادم للفعال أيضًا ..

قال تعالى ﴿**وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً** ..﴾[١٧٥]

قال الشيخ السعدي: كيف اشتبه عليهم رب الأرض والسَّمَاوات، بِعِجْل من أنقص المخلوقات!! ولهذا قال مبينًا أنه ليس فيه من الصفات الذاتية ولا الفعلية، ما يوجب أن يكون إِلَـٰهًا ﴿**أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لا**

---

١٧١ الروم: ٥٠.

١٧٢ فصلت: ٣٩.

١٧٣ الأعراف: ٥٧.

١٧٤ رواه أحمد وأبو داود عن أبي رزين، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٣٣٤).

١٧٥ الأعراف: ١٤٨.

﴿**يُكَلِّمُهُمْ**﴾ أي: وعدم الكلام نقص عظيم، فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد، الذي لا يتكلم ﴿**وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلا**﴾ أي: لا يدلهم طريقا دينيا، ولا يُحصِّل لهم مصلحة دنيوية، لأن من المتقرر في العقول والفطر، أن اتخاذ إِلَـٰه لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر من أبطل الباطل، وأسمج السفه. أهـ.

قلتُ: فهذا العجل عادم الكمال ﴿**لاَ يُكَلِّمُهُمْ – لاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً**﴾ وعادم الفعال ﴿**لاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ـ لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا**﴾.

﴿**وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى**﴾: والحق سبحانه له الكمال وصفًا، وله الكمال فعلاً، فهو الإِلَـٰه الحقّ.

﴿**وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾: سبق بيانها.

﴿**وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا**﴾: التعبير باسم الفاعل ﴿**آتِيَةٌ**﴾ دون الفعل تأتي للدلالة على تحقق اثباتها وتقررها ألبتة لاقتضاء الحكمة إياه لا محالة، إذ بدون الساعة يكون خلق السماوات والأرض باطلاً، وسيأتي تفصيله في كلام ابْنُ الْقَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ.

﴿**لاَّ رَيْبَ فِيهَا**﴾: لأنها في ظهور أمرها ووضوح دلائلها بحيث ليس مظنة أن يرتاب في اثباتها.

﴿**وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ**﴾: للفصل والحساب – ليس لمجرد إحياء الموتى- ولكن ليروا أعمالهم بمثاقيل الذر، وذلك يستلزم العلم الكامل والخبرة الكاملة بظاهر الإنسان وباطنه، كما دلَّت عليه الآيات.

٢- ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ* ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ* ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[١٧٦].

هذا وعد من الله بالنصر لمن بُغيّ عليه بشرط أن يكون عاقب بمثل ما عُوقب به ثم بُغيّ عليه، فيكون ردُّ الفعل مماثلاً للفعل، والتحقق من تلك الـــمِثْلية ممتنع إلا على من له الكمال في علمه وخبرته ولطفه وقدرته وصفاته، إذ يدخل في النوايا والظروف والملابسات والأهلية وغيرها، والمظالم بالمليارات على طول الزمان، فجائت الآية بالحُجة والبرهان على كمال قدرته تعالى وعلمه وصفاته ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾ وهذه الحجة متكررة في الكتاب خمس مرات في سياقات التوحيد العالية لأنها حُجة دامغة فيلزم أن نُبينها في شيء من ضوء المعارف الحديثة، ولا تستطل التفاصيل فكلها من آيات الله وبراهينه الدَّالة على كماله وأنه الحَقّ.

- ﴿**يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ**﴾ يُدْخِلُ مكانَ الليل في سبب حدوث النهار وهو المواجهة مع الشمس ويدخل مكان النهار في سبب حدوث الليل وهو الابتعاد عن سبب النهار، وذلك يكون بدوران الأرض الكروية أمام الشمس بإحكام كامل في سرعة الدوران واتجاه محوره، ولا يقدر على ذلك إلا كامل القدرة والهيمنة والعلو والكبرياء. ولمن لا يتصور كروية الأرض، أقول له: اذهب إلى ميناء بحري، واصطحب منظاراً وانظر به إلى سفينة مُقبلة من بعيد، سترى قمتَّها وأعلاها أولاً، وكلما أقتربت رأيت منها الأجزاء الأقل علواً من القمة، وهكذا تظهر كلها تدريجيًا من أعلى إلى أسفل، ولا يكون ذلك إلا بكروية سطح الماء، وقوله تعالى ﴿**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ**﴾[١٧٧]. صريحٌ في ذلك. ولقد أثبت ذلك من الأئمة ابْنُ تَيْمِيَّة وابْنُ الْقَيِّم وغيرهما.

ولقد رتَّب تعالى نظام الحياة على الأرض على تعاقب الليل والنهار، من تصريف الرياح والأكسوجين وإنزال الماء من السماء واخراج النبات مما يأكل الناس والأنعام، وغير ذلك مما يلزم الرعاية الكاملة والحكمة والمصلحة.

نريد أن نتصور شيئًا عن ضخامة وعظمة إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، فنقول: لقد ثبت في المعارف الفلكية الحديثة أن المجموعة الشمسية تسبح في فلكها في مجرتها حول قرص المجرة، حيث سرعة الشمس المدارية ٣٠٠كم/ث (تصوَّر)، والأرض في مجموعتها تابعة لها (كراكب القطار)

---

[١٧٦] الحج: ٦٠:٦٢.

[١٧٧] الزمر: ٥.

يعني بسرعة ٣٠٠كم/ث، ثم تدور حول الشمس بسرعة مدارية قدرها ٢٩,٦كم/ث، في مسار بيضاوي دورة كل سنة، وفي الوقت نفسه تدور حول نفسها بسرعة ٢٧كم/دقيقة تقريبًا، وعجيبة العجائب، محور دورانها الذي يشير إلى القُطب الجُغرافي الذي يُحدده النجم القطبي ناحية الشمال، ونتيجة لميل هذا المحور على مستوى مدار الأرض حول الشمس بزاوية معلومة محسوبة بحسبان، فإن كمية الأشعة التي تستقبلها الأرض من الشمس تختلف من نقطة لأخرى على سطحها، وهو ما يسبب الفصول الأربعة، وما يترتب عليها من تنوع النعم والحكم، من اختلاف المناخ والمحاصيل والثمرات وغيرها كثير؛ وبِتَغيُّر ميل ذلك المحور يتغير تبعًا له نظام الحياة على سطح الأرض، فمثلاً لو كان مارًا بالشمس لكان نصف الأرض نهارًا سرمديًا ونصفها الآخر ليلاً سرمديًا، والله امتن علينا وذكَّرنا بهذه النعمة فقال ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ٧١ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ٧٢**﴾[١٧٨] لكن العزيز العليم الحكيم كما قال ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾ ﴿**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا**﴾ ﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ**﴾.

ولكي يتم تصورك اذكر ضخامة الأرض بمحيطاتها وجبالها وما تحمله في باطنها وعلى ظهرها حيث قدر الفلكيون كتلتها ٥,٠٩٧٥ ألف مليون مليون مليون طن، فإذا تصورت فاذكر صفة من يفعل ذلك، يُهيمن ويُحكِم ويضبط حركة الشمس ومجموعتها والأرض على هذا النحو بمنتهى الاتقان والإحكام، وبلا أدنى خَلَلَ وعلى الدَّوام على مدى مليارات السنين، حيث أمكن للبشر معرفة توقيت الشروق والغروب بالثانية قبل أن يقع .. ومع كل هذا فقد جعلها تعالى قرارًا كأنها ثابتة بلا حركة، علمًا بما في باطنها من المواد المنهصرة المتناهية الحرارة وفيها القوة للخروج إلى ظهر الأرض فتحرق وتدمِّر كل شيء، لولا أن الله جعل فيها رواسيّ لها جذور عميقة تصد هذه الموجات العاتية من الحمم المنْصَهرة عن استكمال مَوْرِها واندفاعها بقوة الطرد المركزي إلى ظهر الأرض، وفي ذلك اثبات لكمال العزة والقدرة والعلم والحكمة واللُّطف والخبرة والمغفرة والرَّحْمة كما قال ﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ**﴾[١٧٩] فختم الآية بكمال العزة، وكمال المغفرة التي

---

[١٧٨] القصص: ٧١-٧٢.

[١٧٩] الزمر: ٥.

لولاها لآخذ الناس بما كسبوا فما ترك على ظهرها من دابة كما قال ﴿**كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ**﴾[١٨٠].

فيسيرٌ عليه سبحانه أن يُحقق وعده بنصر المبغي عليه ولو كانوا بالمليارات بالشرط الذي تحقيقه يسير على السميع البصير، السَّميع لكل المسمُوعات، البصير بكل الـــمُبصرات، ومن ذلك عمل كل من الباغي والمبغيّ عليه، فيكون معنى الآية واضحًا.

﴿**ذَٰلِكَ**﴾: إشارة إلى الوعد المذكور.

﴿**بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ**﴾ الباء للسببية أو للملابسة، والمعنى أن الذي يفعل هذه الأفعال (التي لا يستطيعها غيره ولا ذَرَّة) على نحو الإحْكام والاتقان الكامل لهو جدير بوصف الكمال الذي لا نقص فيه، ومن ثمَّ يكون ذلك الوعد يسيرًا عليه، ويكون هو الإِلَـــٰه الحق وحده، وأن ما يَدْعون من دونه لا يفعل من ذلك شيئًا ولا يستطيع، وهو الباطل وجودًا وهو الباطل منفعة، ولا منفعةَ في قصده، وأن الله هو العليُّ الْكَبِيرُ، علو الذات وعلو القهر وعلو القدر وعلو التعالي، الْكَبِير الذي كلماته القدريات تامات لا يتخلف لها أثر كما قال تعالى ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾[١٨١]، وكلماته الشرعيات تامات مستوجبات للسمع والطاعة ﴿**سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾، ومن عصا فالحساب حق، والنار حق، وتفصيل ذلك في شرح اسمه تعالى "**الْكَبِير**" وسيأتي زيادة بيان في السياق التالي من سورة لقمان.

---

[١٨٠] سبأ: ١٥.

[١٨١] فُصلت: ١١.

٣- ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾[١٨٢].

وهذا سياق كسابقه من سياقات التوحيد الكُبرى:

قال تعالى ﴿**لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ الملك الكامل لجميع الأشياء وأحوالها، وغناه وحمده.

قال تعالى ﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ تلك كلماته التامات التي لا يُجاوزهن برٌ ولا فاجر ولا يخرج عن حكمها شيء في السماوات ولا في الأرض، وتأكيد عزته وحكمته فهو غالب على أمره، وجميع أقواله وأفعاله على صراط مستقيم قَدَرًا وشرعًا وجزاءا.

﴿**مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ* أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ .. الآيات**﴾ إن خلق نفس واحدة على النحو العجيب كما مرَّ في قوله تعالى ﴿**إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ .. الآية**﴾ دال على كمال قدرته لما ضربنا، ويستوي في كمال القدرة: القليلُ والكثيرُ والبدءُ والإعادةُ، وكل كمال لله مستلزم لانتفاء النقيض، ونفيّ النقيض مستلزم لثبوت الكمال المقابل، فبكمال القدرة ينتفي العجز، وبانتفاء العجز يثبت كمال القدرة وهكذا، ثم جاء الاستدلال على ما تضمنته الآية وما قبلها بفعل الله تعالى للإيلاج المذكور وتسخير الشمس والقمر يدل دلالة قاطعة للجميع على كمال القدرة على البعث وغيره، لأنه ما من إنسان إلا وهو يرى ويعلم تعاقب الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر، فالخطاب في قوله ﴿**أَلَمْ تَرَ**﴾ لغير مُعيَّن، والاستفهام لإنكار عدم الرؤية بتنزيل العالمين منزلة غير عالمين لعدم انتفاعهم بعلمهم.

لنأخذْ تسخير الشمس والقمر أيضًا في ضوء المعارف الفلكية الحديثة:

﴿**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾.

الشمس مصدر الطاقة في مجموعتها، ولا حياة على الأرض بدونها، وعلى مدى مليارات السنين ثم إلى يوم القيامة تأتيها الطاقة بأنواعها ولا خوف من نضوبها أو انقطاعها، مع أنها تنتج في كل ثانية (٣,٨٦±,٠٣)×١٠ ٣٣سعر/ث، وهذه أرقام فلكية، فكيف قُدِّر ذلك!!؟ :

---

[١٨٢] لقمان: ٢٩-٣٠.

إن غاز الهيدروچـــين هو المكوِّن الأساسي للشمس، وذرته = ١,٠٠٧٨ وحدة ذرية، وتتحدّ كل أربع ذرات مكونة ذَرَّة من غاز الهيليوم وذرته = ٤,٠٠٣ وحدة ذرية، والفارق هو الذي يتحول إلى طاقة: ٤×١,٠٠٧٨-٤,٠٠٣=٠,٠٢٨٢ وحدة ذرية.

فإذا علمنا ضخامة كتلة الشمس التي قدرها الفلكيون تقريبًا: (١,٩٩±٠,٠٠٢)×١٠ ^٢٧^طن، تبيَّن أن انتاجها للطاقة لا يختل إلى أجل مُسمًّى، وكما قال تعالى ﴿**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ**﴾[١٨٣].

على حسابات الفلكيين: لو زادت المسافة بين الأرض والشمس على ما هي عليه الآن بمقدار ٤,٥ مليون كم في المتوسط لانخفضت درجة الحرارة على سطح الأرض إلى ١٨٠° تحت الصفر، وبالتالي تنعدم فرصة الحياة للبشر، ولو نقصت بمقدار ١,٥ مليون كم في المتوسط لارتفعت درجة الحرارة إلى ٤٥٠° م وتنتهي فرصة الحياة للبشر.

وضخامة كتلة الشمس ليست محسوبة فقط لانتاج الطاقة، بل أيضًا من أجل ضخامة الجاذبية اللازمة لحفظ كواكب المجموعة والتي تسبح في أفلاكها (مساراتها الدائرية) حول الشمس بسرعات فلكية، فيَّتزن الكوكب تحت تأثير قوتين أساسيتين: قوة جذب الشمس له، وقوة الطرد المركزي، وكل ذلك بحساب (بقدر) ... لقد قدَّر الفلكيون أن كتلة الأرض لو كانت مساوية لكتلة الشمس لبلغت جاذبيتها مائة وخمسين ضعفًا مما هي عليه الآن، وإذًا لارتفع الضغط الجوي على سطحها إلى مُعدل طن في البوصة المربعة، ولاستحالت الحياة عليها، علمًا بأن الجميع قد انفصل من كتلة غازية واحدة، لكن بحساب ... سبحان الْخَلَّاقُ الْعَلِيم.

وقال الفلكيون: لو كانت الأرض قدر القمر لانخفضت جاذبيتها إلى السُدس مما هي عليه الآن فما استطاعت أن تُمسك بالماء فوق سطحها، ولانعدمت امكانية الحياة على ظهرها كما هو الحال على سطح القمر، لكن خُلقت الأرض بكتلة تبلغ ثمانين ضعفًا من كتلة القمر، كما أن حجمها خمسون ضعفًا من حجم القمر.

أما القمر فيدور حول الأرض، ويجذب مياه البحار والمحيطات بجاذبية ضعيفة بالنسبة لجاذبية الأرض التي تقاومها، فتعيد المياه مرة أخرى، فيحدث المدّ والجزر بسبب الشدَّ والجذب بين الجاذبيتين، فتظل الأملاح عالقة فلا تترسب، وإلا لترسبت ملايين أطنان الملح فتعفنت المياه وفسدت وماتت الأحياء المائية، وانتشرت الميكروبات فعمت سطح الأرض وانتهت في النهاية الحياة على سطح الأرض. وهذا علاوة على ما للقمر من الأغراض والحِكَم الأخرى.

---

١٨٣ الرحمن: ٥.

ولقد علمت حركة الأرض: مع الشمس ٣٠٠ كم/ث ثم حول الشمس ٢٩,٠٦كم/ث ثم حول نفسها ليتعاقب الليل والنهار، ثم القمر يدور حول الأرض بانضباط تام لا يختل، فما ظنك بمن يفعل ذلك على الدوام على مدى مليارات السنين بإحكامٍ تام!! ألا يكون كامل الصفات!؟ يعني: ألا يكون حقًا!؟ بلى.

إنه المتصف بكل كمال المنَّزه عن كل نقص ومن ثم فهو المستحق لأن يؤله فيُعبد، إنه الإِلَــٰه الحق.

وهنا أذكر كلمات للعبقري أنيشتين، أرسل بها لأحد أصدقائه بعد تَفُكر في الخلق، قال: "أريد أن أعرف كيف خلق الله العالم، أريد أن أعرف أفكاره، ما عدا ذلك فهو تفاصيل، الله خالق بارع حاذق وليس بشرير، ولا يلعب بالنرد مع الكون ...".

ولقد علمنا من كتاب الله أن أولي الألباب عندما يتفكرون في خلق السماوات والأرض يقولون: **﴿رَبَّنَآ مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾**.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾:

١- الخبير: الذي يُدرك ما خفيّ من الأمور وبواطنها، فَسَيُعرضون لا تخفى منهم خافية، قال القرطبي: من قدر على هذه الأشياء (الإيلاج والتسخير) فلا بد من أن يكون عالمًا بها، والعالم بها عالم بأعمالكم.[١٨٤]

وقال الآلوسي: فإن من شاهد مثل ذلك الصُنع الرائق، والتدبير اللائق، لا يكاد يغفل عن كون صانعه عز وجل محيطاً بجلائل أعماله ودقائقها.[١٨٥]

قلت: بل الإيلاج والتسخير كما بيَّنا بعض معانيها يدلان على كل الكمالات المذكورة في السياق (الملك- الغنى- الحمد- الكلمات التامات- العزة والحكمة- القدرة- السمع- البصر). بل على كل صفات الكمال الثابتة لله سبحانه.

٢- إنَّ العلم بدقائق ما في القلوب والصدور (مليارات من الإنس والجن في آن) لا يكون إلا ممن له الكمال في العلم والخبرة إذ الكمال يستوي فيه الكثير والقليل، والصعب واليسير، فالإيمان والتوحيد وتحقيق لا إِلَــٰه إلا الله (محبة وخوفًا ورجاءًا وتوكلاً وإنابة وإخباتًا وتصديقًا وتكذيبًا ويقينًا وشكًا وريبًا وولاءً وبراءً وموالاة ومعاداة .. إلى كل ما يكون في القلب).

يقول ابْنُ تَيْمِيَّة: لَكِنَّ أَوَّلَ الدِّينِ وَآخِرَهُ وَظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ هُوَ التَّوْحِيدُ وَإِخْلَاصُ الدِّينِ كُلِّهِ لِلَّهِ هُوَ تَحْقِيقُ قَوْلِ لَا إِلَــٰه إِلَّا اللَّهُ . فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَإِنْ اشْتَرَكُوا فِي الْإِقْرَارِ بِهَا فَهُمْ مُتَفَاضِلُونَ فِي تَحْقِيقِهَا تَفَاضُلًا لَا

---

١٨٤ تفسير القرطبي. سورة لقمان.

١٨٥ تفسير الآلوسي.

نَقْدرُ أَنْ نَضْبطَهُ حَتَّى أَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ التَّوْحِيدَ الْمَفْرُوضَ هُوَ الْإِقْرَارُ وَالتَّصْدِيقُ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَلَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الْإِقْرَارِ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ الَّذِي أَقَرَّ بِهِ مُشْرِكُو الْعَرَبِ وَبَيْنَ تَوْحِيدِ الْإِلَـٰهِيَّةِ الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا يَجْمَعُونَ بَيْنَ التَّوْحِيدِ الْقَوْلِيِّ وَالْعَمَلِيِّ[١٨٦].

- نأخذ مثالاً بالتوكل: سُئِلَ الإمام أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ التَّوَكُّلِ فَقَالَ: قَطْعُ الِاسْتِشْرَافِ إلَى الْخَلْقِ؛ أَيْ لَا يَكُونُ فِي قَلْبِكَ أَنَّ أَحَدًا يَأْتِيكَ بِشَيْءٍ[١٨٧].

قلت: فذلك من تعلق القلوب بالأسباب وأكثره من الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، وهُوَ الَّذِي لَا يَكَادُ أَحَدٌ أَنْ يَسْلَمَ مِنْهُ، كما يقرره ابْنُ تَيْمِيَّة في غير موضع[١٨٨]. وهو ما يكون في المحبة والخوف والرجاء والتوكل وغيره، والقلب الواحد تتقلب أحواله في كل يوم، بل في كل ساعة، بل في كل لحظة، فما لم يكن المعبود مُحيطًا بدقائق ذلك وتفاصيله فقد وقع الظلم والهضم والبخس والرَّهَق لا محالة وثبت النقص لذلك المعبود وحاشا للإِلَـٰه الحق المتره عن أدنى ذَرَّة من نقص، السبوح القدوس، العليم بذات الصدور، الخبير بما يعملون، المحيط بكل شيء قدرةً وعلمًا، خالق كل شيء من العباد وأفعالهم، خالق القلوب وأفعالها، بل كل ما يعملون، وما يكتب الحفظة، مُدوَّن في اللوح المحفوظ قبل خلق الأرض وما، ومن عليها[١٨٩]. قال تعالى ﴿**هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[١٩٠]. فما كتاب الحفظة إلا نسخة مما في اللوح المحفوظ.

والتوكل مبسوط تمامًا بإذن الله في شرح اسمه تعالى "**الوكيل**" ولكن هنا نُبين ما يلي:

العبد مأمور بالأخذ بالأسباب والاستعانة بها على أمور دينه ودنياه، وهو مُحذَّرٌ من الالتفات والركون إليها باستقلالها في تحصيل المسبَّبات المطلوبة فذلك شرك، وإنما يستقلّ بتحقيق المطلوب: الوكيل على كل شيء، فالأسباب خُلقت مقتضيةً للمُسببات، ليست مستلزمة لها، وهي أحقر من أن تُحقق شيئًا لم يأذن به الوكيل سبحانه، وإنما تتعلق بها القلوب عن وهم أنها تأتي العبد بشيء. وسأكتفي ببعض كلام ابْنُ تَيْمِيَّة في هذا الشأن قال –رحمه الله–: فَالرَّجَاءُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَعَلَّقَ بِاَللَّهِ، وَلَا يَتَعَلَّقَ بِمَخْلُوقٍ وَلَا بِقُوَّةِ الْعَبْدِ وَلَا عَمَلِهِ، فَإِنَّ تَعْلِيقَ الرَّجَاءِ بِغَيْرِ اللَّهِ إشْرَاكٌ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ قَدْ جَعَلَ لَهَا أَسْبَابًا، فَالسَّبَبُ لَا يَسْتَقِلُّ بِنَفْسِهِ، بَلْ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُعَاوِنٍ، وَلَا بُدَّ أَنْ يُمْنَعَ الْمُعَارِضُ الْمُعَوِّقُ لَهُ وَهُوَ لَا يَحْصُلُ وَيَبْقَى إلَّا

---

١٨٦ مجموع الفتاوى: ج١٠ صـ ٢٦٤.

١٨٧ مجموع الفتاوى: ج١٠ صـ ٢٥٩.

١٨٨ مجموع الفتاوى: ج١ صـ٩٣-٩٤.

١٨٩ كما في الحديث الذي رواه مسلم برقم (٢٦٥٣) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاص.

١٩٠ الجاثية: ٢٩.

بمَشيئَة اللَّه تَعَالَى. وَلِهَذَا قِيلَ: الالْتِفَاتُ إِلَى الْأَسْبَاب شِرْكٌ فِي التَّوْحِيد، وَمَحْوُ الْأَسْبَاب أَنْ تَكُونَ أَسْبَابًا نَقْصٌ فِي الْعَقْلِ، وَالْإِعْرَاضُ عَنْ الْأَسْبَاب بِالْكُلِّيَّةِ قَدْحٌ فِي الشَّرْعِ. وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿**فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ*وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ**﴾ فَأَمَرَ بِأَنْ تَكُونَ الرَّغْبَةُ إلَيْهِ وَحْدَهُ وَقَالَ ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ فَالْقَلْبُ لَا يَتَوَكَّلُ إلَّا عَلَى مَنْ يَرْجُوهُ، فَمَنْ رَجَا قُوَّتَهُ أَوْ عَمَلَهُ أَوْ عِلْمَهُ أَوْ حَالَهُ أَوْ صَدِيقَهُ أَوْ قَرَابَتَهُ أَوْ شَيْخَهُ أَوْ مُلْكَهُ أَوْ مَالَهُ غَيْرَ نَاظِرٍ إلَى اللَّهِ كَانَ فِيهِ نَوْعُ تَوَكُّلٍ عَلَى ذَلِكَ السَّبَبِ، وَمَا رَجَا أَحَدٌ مَخْلُوقًا أَوْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ إلَّا خَابَ ظَنُّهُ فِيهِ فَإِنَّهُ شِرْكٌ ﴿**وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾[١٩١].

قلت: هذا المعنى الذي اخترناه في قوله ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ مناسب تمامًا لقوله تعالى ﴿**إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾ وباقي السياقات في سور (الرعد-فاطر-الزمر) نجد قوله ﴿**لِأَجَلٍ مُسَمًّى**﴾، ومعلوم أن حرف "إلى" يُفيد انتهاء الغاية، وأن حرف "لـــ" يفيد التعليل (والمصلحة على طول الزمان حتى نهاية الدنيا والأجل الـــمُسمَّى) أو العاقبة، يعني ذلك التسخير قائم ومستمر بلا توقف ولا خلل لتقوم الحياة على الحكمة.

قال الآلوسي في التفسير: جرى يتعدى بإلى تارة وباللام أخرى، وتعديته بالأول بـــ "إلى" باعتبار كون المجرور "غاية"، وبالثاني (لـــ) باعتبار كونه "غرضًا" فتكون اللام لام تعليل أو عاقبة. أ.هـــ

فقوله ﴿**إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾ حتى تبلغوا الغاية التي هي البعث والحساب الذي لا يخفى منه خافية، أما ﴿**لِأَجَلٍ مُسَمًّى**﴾، فسياقها في سورة الرعد: تدبير الأمر وتفصيل الآيات، وفي سورة فاطر: بيان الربوبية والملك، وفي سورة الزمر: بيان العزة والمغفرة التي بدونها ما كان ترك على ظهرها من دآبة (بعد انتشار الكفر والفسوق والعصيان).

- ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾

﴿**ذَلِكَ**﴾: إشارة إلى ما ذكر في الآية السابقة من الإيلاج والتسخير وكمال الخبرة بأعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان فلا تخفى خافية.

الباء في ﴿**بِأَنَّ**﴾ للسببية أو الملابسة. ﴿**اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ**﴾ بفضل الله بينتُ بما فيه الكفاية.

﴿**وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ**﴾ وهذه لا تحتاج إلى تعليق لوضوح المعنى جدًا، إذ لا يوجد مخلوق (وكل ما يُدعى من دون الله مخلوق) فَعَل من ذلك الإيلاج وذلك التسخير شيئًا ولا يستطيع،

---

١٩١ مجموع الفتاوى: ج١٠ صـــ ٢٥٦-٢٥٧.

بل النقص كله لازمه فكيف يكون إِلَـٰهًا؟! كما لا يوجد مخلوق يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور فكيف يكون إِلَـٰهًا؟! بل لا يكون إلا باطلاً.

- ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾ عُلُو اللهِ سبحانه يتضمن اتصافه بجميع صفات الكمال، وتنزيهه عما يُنافيها من صفات النقص، وتنزيهه عن أن يكون له مَثَل، وأنه لا إِلَـٰه إلا هو، ولا ربَّ سواه. وتفصيل ذلك يُراجع في بيان أسمائه: العليّ – الأعلى – المتعال.

واختصاره كما يلي:

١- علو القَدْر: فهو أعلى من غيره قدْرًا، فهو أحق بصفات الكمال ولا شيء مثله فيها (ولا يماثله فيها شيء) وذلك يقتضي انتفاء الناقض؛ من النقائصِ والعُيوبِ، وأنه الإِلَـٰه الحق وحده.

٢- علو القَهْر والقدْرة: فهو قاهر للخلق، قادرٌ عليهم، نافذ المشيئة فيهم فلا يخرج شيءٌ عما قدَّره وقضاه، وذلك يقتضي رُبُوبيَّته لهم وخلقَهم، وذلك يستلزم ثبوتَ الكمالِ وانتفاء المثالِ، وأنه لا ربَّ سِواه.

٣- علو التعالي: تعاليه عن النقائص والعيوب (وهذا يقتضي اثبات الكمالات المقابلة للنقائص المنفية) وتعاليه عن المثل والسَّمِيِّ والنِّد فلا يكون شيء مثله، وتعاليه عن الشريك وذلك يتضمن أنه أفضل وخير من كل شيء كما أنه أكبر من كل شيء.

٤- علو الذات: فهو سبحانه فوق عرشه عالٍ على الجميع.

فإذا رأينا إحكامًا كاملاً في الإيلاج والتسخير مع استمرار ذلك النظام مليارات السنين فقد رأينا عُلَوَّ القهر والقدرة رأي العين في جَرْي الشمس والقمر (والأرض) إلى أجلٍ مسمى في أملاكها لا تحيد عنها شيئًا، ﴿**لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ وكذلك باقي أنواع العلو (القدْر والتعالي والذات).

والكبير: صاحب الكلمات التامات، وله الكبرياء في السماوات والأرض، والكبرياء: هي السيادة والسُّلطان القدري والشرعي، وله الحق المطلق في السَّمع المطلق والطاعة المطلقة، وقديمًا قالت السماوات والأرض ﴿**أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ فأَوْلى بالبشر.

فذلك الإحكام البالغ الدائم إلى أجل مسمى بلا أدنى أدنى ذَرَّة من خلل يدل دلالةً بالغةً على كمالِ عُلوِّ الله وكبريائه وعلى حَقِّيته في أن يُؤْلَه فيُعْبَد وحده دون غيره، فكيف بدلالة مئات آلاف الملايين من المجموعات الشمسية في المجرة الواحدة، فكيف بمئات آلاف الملايين من المجرات التي تسبح في الفضاء؟! ألا هو الإِلَـٰه الحَقّ.

٤- ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ*يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾[١٩٢].

إن يوم القيامة يحق وصفه بمملكة الأسماء الحسنى، حيث يظهر للعالمين آثارها وأحكامها ظهوراً مُبيناً "علم يقين وعين يقين وحق يقين". الخلق كلهم مُحضرون فلا يُخَلَّف منهم أحد، يُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَة، يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ، فَيُتَعرّف ويُتَصَفَّحُ ما أُسِرَّ في القلوب من العقائد والنيات والمقاصد والأعمال الباطنة والظاهرة، ويُمَاز بين ما طاب منها وما خبُثَ. تصور إنساناً كثير الأسْفار، كثير التعاملات مع الناس في بقاع الأرض كيف يُجمع بينهم للحساب على المشاحن والمظالم، ولكلٍ مَزَاعِمُه وتأويلاتُه ونَوَايَاه، وله من خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وقد وضع الله موازينَ القسط فلا تُظلم نفسٌ شيئًا، وأُحضرت الشهود، وما أدراك ما الشهود؟! روى ابن أبي حاتم وابن جرير عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ، عَنْ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ ﴿إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَة عُرِّفَ الْكَافِرُ بِعَمَلِه، فَجَحَدَ وَخَاصَمَ، فَيُقَالُ: هَؤُلَاءِ جِيرَانُكَ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ، فَيَقُولُ: كَذَبُوا، فَيَقُولُ: أَهْلُكَ، عَشِيرَتُكَ؟ فَيَقُولُ: كَذَبُوا، فَيَقُولُ: احْلِفُوا، فَيَحْلِفُونَ، ثُمَّ يُصْمِتُهُمُ اللَّهُ وَتَشْهَدُ أَلْسِنَتُهُمْ، ثُمَّ يُدْخِلُهُمُ النَّارَ﴾[١٩٣].

عَنْ أَنَس بْن مَالك قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ فَضَحِكَ فَقَالَ ﴿هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ﴾ قَالَ: قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ ﴿مِنْ مُخَاطَبَة الْعَبْد رَبَّهُ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنْ الظُّلْمِ؟ قَالَ يَقُولُ: بَلَى قَالَ فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي. قَالَ فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيه، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِه: انْطِقِي. قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِه قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ﴾[١٩٤].

فذلك الجزاء الحق كما قال تعالى ﴿**يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ**﴾. فمن يقدر على كل ذلك علمًا وإحصاءًا لتفاصيل النوايا وأعمال القلوب كما بيّنَّاه في قوله تعالى ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾، وإنطاقًا للأركان بما عملت فضلاً عن الكرام الكاتبين خَلْقًا وتقديرًا، إنَّ الذي يفعل ذلك لهو الكامل في قدرته، الكامل في علمه وإحصائه وعزته وعدله ورحمته. إنه الإِلَـٰه الحق الْمُبِين، الظاهر

---

١٩٢ النور: ٢٤-٢٥.

١٩٣ قال الألباني: أخرجه أبو يعلى في "مسنده" (ص ٣٨٦)، وابن جرير في "التفسير" (١٠٥/١٨)، وابن أبي حاتم في "التفسير" أيضا (٢/٣٠/٧) وضعفه في ضعيف الجامع برقم (٦٦٢).

١٩٤ رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق برقم (٥٢٧١).

إِلَـــٰهيته الظاهر حقِيّتُهُ، ما بذلك من خفاء، وما من إنْسان إلا وَهُو يَعْلم ذلك فِطْرة وعَقْلاً، ومن أنكر بعد العلم فهو الجحود قال تعالى ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾[١٩٥].

فإذا كانت آيات سورتيّ الحج ولقمان قد استدلت على حقيِّة الإِلَـــٰهية ببراهين من القسم القدري الكوني من الربوبية، فإن هذه الآية من سورة النور قد استدلت على حَقِّية الإِلَـــٰهية ببرهان من القسم الجزائي، حيث جزاؤه حَقّ ﴿**يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ**﴾ قال المفسرون: **دِينَهُمُ**: يعني جزاءَهم، إنه لكمال عدله في جزاءه، يقتصُّ للشاة الْجَلْحَاءِ من الشاة القرناء[١٩٦]، وجميع الكائنات تشهد له بالحمد يوم القيامة بعد القضاء بالحق، ﴿**وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[١٩٧] حيث لم يجدوا عليه سبيلاً، لم يجدوا مِثْقَالَ ذَرَّة من ظُلم أو خطأ في خلق السماوات والأرض بالحق، ومعلوم أن الحمد هو الكمال. كما زاد في السِّياق وصفًا للحقّ بأنه "الْمُبِين" وهو من الأسماء الحسنى، فلنذكر معناه أولاً ثم نعود للتعليق على الآية:

الْمُبِين: له معنيان: الأول: من أَبَان اللازم، ومعناه: الظاهر الواضح الذي لا يخفى على مخلوق (لا فطرة ولا عقلاً ولا شرعًا) قال تعالى ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ**﴾[١٩٨] ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾[١٩٩] ﴿**قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ**﴾[٢٠٠] والآيات في ذلك كثيرة.

فإن قيل فما بال فرعون الذي قال ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى**﴾ وقال ﴿**مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي**﴾؟! فقد بيَّن الله حقيقته قائلاً ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾[٢٠١].

ولما سأل موسى سؤال جحد وإنكار قائلاً ﴿**وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾[٢٠٢] فأجابه موسى ﴿**قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ**﴾[٢٠٣] وأطلق عليه السلام ﴿**مُّوقِنِينَ**﴾ و لم يُقيدها: موقنين بالأرض- موقنين بالسماء- بكذا وكذا، فأيُّ يقين كان لكم بشيء من الأشياء، فأول

---

١٩٥ النمل: ١٤.

١٩٦ كما في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة، باب تحريم الظلم، والحديث {لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ}.

١٩٧ الزمر: ٧٥.

١٩٨ الزخرف: ٩.

١٩٩ الزخرف: ٨٧.

٢٠٠ المؤمنون: ٨٣-٨٤.

٢٠١ النمل: ١٤.

٢٠٢ الشعراء: ٢٣.

٢٠٣ الشعراء: ٢٤.

اليقين: اليقين بالذي أوجده، اليقين بهذا الرب الذي هو ربُّ هذا الشيء وخالقه الذي أودع فيه من العلم والحكمة ما أودع، فَبَيَّنَ مُوسَى أَنَّهُ مَعْرُوفٌ عِنْدَهُ وَعِنْدَ الْحَاضِرِينَ، وَأَنَّ آيَاتِه ظَاهِرَةٌ بَيِّنَةٌ لَا يُمْكِنُ مَعَهَا جَحْدُهُ. وَأَنَّكُمْ إِنَّمَا تَجْحَدُونَ بِأَلْسِنَتِكُمْ مَا تَعْرِفُونَهُ بِقُلُوبِكُمْ كَمَا قَالَ مُوسَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ لِفِرْعَوْنَ ﴿**لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ**﴾ فكان استفهام فرعون استفهام إنكار وجحد (والجحود لا يكون إلا مع العلم).[٢٠٤]

وليس وجوده فقط هو الظاهر، بل ربوبيته ﴿**فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ**﴾ ومَلكيَّتُهُ ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ**﴾ ومَوْلَويَّته ﴿**وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ**﴾ وولايته ﴿**هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ**﴾ وإِلَـٰهيته ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ**﴾ كل ذلك بَيِّنٌ ظاهرٌ واضح، أظهرَ من الشمس في رابعة النهار.

روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (عن الدَّجَّال) ﴿فَيَتَوَجَّهُ قِبَلَهُ رَجُلٌ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فَتَلْقَاهُ مَسَالِحُ الدَّجَّالِ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَوَ مَا تُؤْمِنُ بِرَبِّنَا؟ فَيَقُولُ: مَا بِرَبِّنَا خَفَاءٌ. فَيَنْطَلِقُونَ بِهِ إِلَى الدَّجَّالِ بعد أن يريدوا قتله، فَإِذَا رَآهُ الْمُؤْمِنُ قال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ: هَذَا الدَّجَّالُ الَّذِي ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾.[٢٠٥] وهذا المؤمن هو أفضل أهل زمان خروج الدجال، وهو يحتج على جنود الدجال قائلاً: مَا بِرَبِّنَا خَفَاء. كما فسَّره الْحَلِيمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: بأنه الَّذِي لا يَخْفَى وَلا يَنْكَتِمْ.

فلا يحتاج الإنسان أن يُنقِّب في البلاد بحثًا عنه سبحانه، والرُّسل إنما جاءوا أساسًا بتذكير الناس بما في فطرهم وتقريره وتكميله.

قال ابْنُ تَيْمِيَّة: وَلِهَذَا كَانَتْ الرُّسُلُ إنَّمَا تَأْتِي بِتَذْكِيرِ الْفِطْرَةِ مَا هُوَ مَعْلُومٌ لَهَا، وَتَقْوِيَتِه وَإِمْدَاده، وَنَفْيِ الْمُغَيِّرِ لِلْفِطْرَةِ. فَالرُّسُلُ بُعِثُوا بِتَقْرِيرِ الْفِطْرَةِ وَتَكْمِيلِهَا لَا بِتَغْيِيرِ الْفِطْرَةِ وَتَحْوِيلِهَا. وَالْكَمَالُ يَحْصُلُ بِالْفِطْرَةِ الْمُكَمَّلَةِ بِالشِّرْعَةِ الْمُنَزَّلَة[٢٠٦].

وقال: وَهُوَ قَدْ وُلِدَ عَلَى الْفِطْرَةِ الَّتِي تَقْتَضِي أَنَّهُ يَعْرِفُ رَبَّهُ وَيُحِبُّهُ وَيُوَحِّدُهُ. فَإِذَا لَمْ يَنْسَ رَبَّهُ الَّذِي عَرَفَهُ، بَلْ ذَكَرَهُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَقْتَضِي مَحَبَّتَهُ وَمَعْرِفَتَهُ وَتَوْحِيدَهُ، ذَكَرَ نَفْسَهُ فَأَبْصَرَ مَا كَانَ فِيهَا قَبْلُ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمَحَبَّتِه وَتَوْحِيده[٢٠٧].

وقال: إذْ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ تَعْرِفُهُ وَتُقِرُّ بِه، وَكُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، لَكِنْ عَرَضَ لِلْفِطْرَةِ مَا غَيَّرَهَا، وَالْإِنْسَانُ إذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ مَا فِي فِطْرَتِه. وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ فِي خِطَابِهِ لِمُوسَى ﴿**فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ**

---

٢٠٤ راجع: مجموع الفتاوى ج١٦ صـ ٣٣٣:٣٣٥.

٢٠٥ رواه مسلم، بَاب فِي صِفَةِ الدَّجَّالِ وَتَحْرِيمِ الْمَدِينَةِ عَلَيْهِ وَقَتْلِهِ الْمُؤْمِنَ وَإِحْيَائِه.

٢٠٦ مجموع الفتاوى: ج١٦ صـ ٣٤٨.

٢٠٧ مجموع الفتاوى: ج١٦ صـ ٣٥٠.

يَتَذَكَّرُ﴾ مَا فِي فِطْرَتِهِ مِنْ الْعِلْمِ الَّذِي بِهِ يَعْرِفُ رَبَّهُ، وَيَعْرِفُ إنْعَامَهُ عَلَيْهِ، وَإِحْسَانَهُ إلَيْهِ، وَافْتِقَارَهُ إلَيْهِ فَذَلِكَ يَدْعُوهُ إلَى الْإِيمَانِ[٢٠٨].

قال تعالى ﴿**وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ٢٧بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ٢٨**﴾[٢٠٩].

قال ابْنُ الْقَيِّم: فالقوم كانوا يعلمون: أنهم كانوا فى الدنيا على باطل وأن الرسل صَدَقُوهم فيما بلَّغوهم عن الله وتيقنوا ذلك وتحققوه، ولكنهم أخفوه و لم يظهروه بينهم، بل تواصوا بكتمانه، فلم يكن الحامل لهم على تمنى الرجوع والايمان معرفة ما لم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل، فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه، وظهر لهم يوم القيامة ما كانوا ينطوون عليه من علمهم أنهم على باطل، وأن الرسل على الحق، فعاينوا ذلك عيانا بعد أن كانوا يكتمونه ويخفونه، فلو ردوا، لما سمحت نفوسهم بالايمان.

ولعادوا الى الكفر والتكذيب، فإنهم لم يتمنوا الايمان لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن الشرك باطل، وإنما تمنوا لَما عاينوا العذاب الذى لا طاقة لهم باحتماله وهذا كمن كان يخفى محبة شخص ومعاشرته، وهو يعلم أن حُبَّه باطل وأن الرشد فى عدوله عنه، فقيل له: إن اطلع عليه وليه عاقبك، وهو يعلم ذلك ويُكابر، ويقول: بل محبته ومعاشرته هى الصواب، فلما أخذه وليه ليعاقبه على ذلك وتيقن العقوبة، تمنى أن يعفى من العقوبة، وأنه لا يجتمع به بعد ذلك، وفى قلبه من محبته والحرص على معاشرته ما يحمله على المعاوده بعد معاينة العقوبة، بل بعد أن مسته وأنهكته. فظهر له عند العقوبة ما كان يخفى من معرفته بخطئه وصواب ما نهاه عنه، ولو رُدَّ لعاد لما نُهى عنه. وتأمل مطابقة الاضراب لهذا المعنى وهو نفى قولهم: إنا لو رددنا لآمنا وصدقنا، لأنه ظهر لنا الآن أن ما قاله الرسل هو الحق، أى ليس كذلك، بل كنتم تعلمون ذلك وتعرفونه، وكنتم تخفونه فلم يظهر لكم شئ لتكونوا عالمين به لتعذروا، بل ظهر لكم ما كان معلوما وكنتم تتواصون بإخفائه وكتمانه والله أعلم[٢١٠].

قلت: هذه المعلومات واضحة جداً عند كل دارس للتوحيد الصحيح، لكن تشتبه على المراقب لأحوال البشر في هذا الزمان، وأكثرهم يبدو وكأنه لم يسمع و لم يعلم شيئًا عن التوحيد الصحيح إلا نُطق الكلمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فَلزِمَ التوضيح:

---

٢٠٨ مجموع الفتاوى: ج١٦ صـ ٣٣٨.

٢٠٩ الأنعام: ٢٧-٢٨.

٢١٠ عُدة الصابرين ١٩٨.

هؤلاء الذين يَبْدون لنا بهذا الحال السيء جدًا: إنما هم نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ كما حذَّرنا اللهُ من مشابهتهم. ونأخذ كلام شَيْخ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّة في بيان ذلك بأنهم لما نَسُوا اللَّهَ عاقبهم الله بأن أَنسَاهُمْ ما بفطرتهم من معرفته ومحبته وتوحيده عقوبةً لهم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَذَا النِّسْيَانُ -نِسْيَانُ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ وَلِمَا فِي نَفْسِهِ- حَصَلَ بِنِسْيَانِهِ لِرَبِّهِ وَلِمَا أَنْزَلَهُ. قَالَ تَعَالَى ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾. وَقَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ الْمُنَافِقِينَ ﴿**نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ**﴾. وَقَالَ ﴿**كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى**﴾. وَقَوْلُهُ ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ**﴾ يَقْتَضِي أَنَّ نِسْيَانَ اللَّهِ كَانَ سَبَبًا لِنِسْيَانِهِمْ أَنْفُسَهُمْ، وَإِنَّهُمْ لَمَّا نَسُوا اللَّهَ عَاقَبَهُمْ بِأَنْ أَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ. وَنِسْيَانُهُمْ أَنْفُسَهُمْ يَتَضَمَّنُ إعْرَاضَهُمْ وَغَفْلَتَهُمْ وَعَدَمَ مَعْرِفَتِهِمْ بِمَا كَانُوا عَارِفِينَ بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ حَالِ أَنْفُسِهِمْ، كَمَا أَنَّهُ يَقْتَضِي تَرْكَهُمْ لِمَصَالِحِ أَنْفُسِهِمْ. فَهُوَ يَقْتَضِي أَنَّهُمْ لَا يَذْكُرُونَ أَنْفُسَهُمْ ذِكْرًا يَنْفَعُهَا وَيُصْلِحُهَا، وَأَنَّهُمْ لَوْ ذَكَرُوا اللَّهَ لَذَكَرُوا أَنْفُسَهُمْ[٢١١].

وقال: وَأَهْلُ الْبِدَعِ -الْجَهْمِيَّة وَنَحْوُهُمْ- لَمَّا أَعْرَضُوا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ -الذِّكْرَ الْمَشْرُوعَ الَّذِي كَانَ فِي الْفِطْرَةِ وَجَاءَتْ بِهِ الشِّرْعَةُ الَّذِي يَتَضَمَّنُ مَعْرِفَتَهُ وَمَحَبَّتَهُ وَتَوْحِيدَهُ- نَسُوا اللَّهَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، فَنَسُوا مَا كَانَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ الْعِلْمِ الْفِطْرِيِّ، وَالْمَحَبَّةِ الْفِطْرِيَّةِ وَالتَّوْحِيدِ الْفِطْرِيِّ[٢١٢]. راجع كلامه كله في مجموع الفتاوى: ج١٦ صـ ٣٤٤:٣٥٣. حيث بَيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ من أقوال المفسرين في الآية وأنهم لم يُعطوا الآية حقها من التفسير.

والمقصود أن الكفَّار والمنافقين حين يُوفَّون جزاءهم الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِين، ويذكرون أنهم كانوا يعرفون ذلك بفطرهم بدايةً قبل أن تحِلَّ عليهم العقوبة فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ وظلُّوا على تلك الحال حتى الموت، فحسرتهم لا نهايةَ لها، نسأل الله العافية.

وأما المعنى الثاني لاسمه الْمُبِين: فهو من أَبَانَ المتعدي، أي الـــمُظهِر للأشياء كما هي في أنفسها، والذي يُبيّن للناسِ من أسمائه وصفاته، وماذا يجلب لهم المنفعة وماذا يدفع عنهم المضرة وذلك في الدارين، فأرسل رسوله المبين، وأنزل كتابه المبين، والرسول يُبيّن للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون، والكِتَاب مُّبِين، هو تِبْيَان لكل شيء وآيَاته بَيِّنَات، ﴿**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[٢١٣] وقال تعالى ﴿**وَمَا كُنَّا**

---

٢١١ مجموع الفتاوى: ج١٦ صـ ٣٤٨-٣٤٩.

٢١٢ مجموع الفتاوى: ج١٦ صـ ٣٥٠.

٢١٣ الحديد: ٩.

مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ فلا بد من قيام الحُجّة الرسالية التي تُبيّن كلَ شيء ولا تُبْقي شُبهةً في أي شيء، فلا عُذر لأحد بعدها.

يقول ابْنُ الْقَيِّم: ومن الآيات التي في الأرض مما يُحدثه الله فيها كل وقت ما يصدق به رسله فيما أخبرت به، فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم، وأدلة نبوتهم يحدثها الله سبحانه وتعالى في الأرض إقامة للحجة على من لم يشاهد تلك الآيات التي قاربت عصر الرسل، حتى كأن أهل كل قَرْن يشاهدون ما يشاهده الأولون أو نظيره كما قال ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الأفاق وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾ وهذه الإرادة لا تختص بقرن دون قرن، بل لابد أن يُري الله سبحانه أهل كل قرن من الآيات ما يبين لهم أن اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَـٰه إِلَّا هُوَ، وأن رسله صادقون، وآيات الأرض أعظم مما ذكر وأكثر، فنبَّه باليسير منها على الكثير[٢١٤].

٢١٤ التبيان في أقسام القرآن: ١٨٧.

٥- ﴿هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ للهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾[٢١٥]

هذه القصة من سورة الكهف تُعالِج قضية من قضايا التوحيد الأساسية المبسوطة في القرآن المجيد، وهي اغترار الإنسان بنعمة الله عليه من المال والولد والزرع والثمار والعافية، فَيَزِنُها بميزانٍ فاسد إذ يحسبها إكرمًا مستحقًا له لأنه أهلٌ لذلك فهو أفضل من غيره وأعلى مكانة ومنزلة منه، ومن ثمَّ لو رُدَّ إلى ربِّه ليجدن خيرًا من هذه النعم مُنقلبًا، ثم هو مع هذه الأوهام والظنون الفاسدة يُرجع النعمة إلى ما أُوتِيّ من علم بطُرق تحصيلها، أي: إلى أسبابها (وهذا من الشرك)، ثم هو يُنكِر البعث (وذلك كفرٌ لأنه إنكار لقدرة الله وعلمه وحكمته وعزته ورحمته وعدله وكمالاته) ولذلك في هذه القصة قال المؤمن للكافر ﴿**أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً**﴾ والمعنى على النحو الذي بيَّناه في آية سورة الحج ﴿**إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ** ..﴾ كما دفع اغتراره بكثرة ماله ونَفَره وولده ومعاونيه فقال ﴿**وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ** ..﴾ فلا توجد نعمة إلا من الله حيث شاء أن تكون للصالح والفاجر، والأسباب لا تُؤتِي أُكُلَها، ولا تستلزم مسبباتها إلا بإذن الوكيل عليها، فلا قوة إلا بالله.

ولقد جاء في القرآن المجيد في نظائر تلك الآيات ما يُبطل باطل الكفار وأوهامهم بذكر قوله تعالى ﴿**يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ**﴾.

١- قال تعالى ﴿**فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[٢١٦]

﴿**عَلَى عِلْمٍ**﴾: أي من الله أني أستحق لأني خيرٌ وأفضل من غيري، أو على علم مِنِّي بطرق تحصيل النعمة وأسبابها ﴿**بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ**﴾ إضراب عن وزنهم الباطل إلى الوزن الحق، فإنما هي اختبار وامتحان والحساب النهائي يوم الحساب.

فأبطل الله باطلهم بقوله ﴿**أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[٢١٧] إذ هذا أمرٌ مُشاهد معلوم، كفار أغنياء وكفار فقراء، ومؤمنون أغنياء ومؤمنون فقراء، فليس الغنى إكرامًا، وليس الفقر إهانةً، كما قال تعالى ﴿**فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ١٦ كَلاَّ** ..﴾[٢١٨]

---

٢١٥ الكهف: ٤٤.

٢١٦ الزمر: ٤٩.

٢١٧ الزمر: ٥٢.

٢١٨ الفجر: ١٥:١٧.

٢- قال تعالى ﴿**وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ٣٥قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ٣٦وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ٣٧**﴾[٢١٩] والمعنى واضح.

ولقد قال قارون من قبل: ﴿**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي** ....﴾ ولما خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قال طُلاَّب الدنيا ﴿**يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ**﴾، فوعظهم أهل العلم قائلين لهم ﴿**وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ**﴾ والثواب هو الذي يرجع ويعود جزاءً على عمل، وليس أفضل من ثَوَابُ اللَّهِ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، أما ثَوَابُ الدنيا فهو أيضًا عند الله بقدر، ولكن يختلط به الابتلاء والاختبار والعقوبات والسنن الربانية مثل الاستدراج والإملاء والإمهال ومداولة الأيام بين الناس وغيرهم ...

ولما جاء أمر الله ﴿**فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ**﴾. والنَّصر لُغةً يدل على إتيان خير وإيتائه، والـــمَطَر يُسمَّى نصرًا، فالرِّزْق هو جلب المنفعة ودفع المضرة (الدينية والدنيوية) و لم يكن له فئةٌ يدفعون عنه مَضَرَّة الخَسفِ والعذاب و لم يستطع بنفسه دفع شيء.

وهنا نجد الذين تمنوا مكانه بالأمس هم الذين يقولون ﴿**وَيْكَأَنَّ اللّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلاَ أَن مَّنَّ اللّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**﴾.

نعود إلى آيات سورة الكهف:

﴿**وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا٤٢ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا٤٣ هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا٤٤**﴾.

لقد دُمِّرت جنَّته التي كان يقول عنها ﴿**مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا**﴾ وانعدم العائد إليه منْها، بعد الإنفاق الكثير فثوابه منها صفْر، بسبب شركه وكفره واحتكاره لأخيه المؤمن الفقير، ثم هو قد اعتز بنَفَره كما قال ﴿**وَأَعَزُّ نَفَرًا**﴾ فأين هم في تولِّيه في نصره بدفع المضرة وعذاب الله عنه؟ لا يستطيعون! وما كان له ولا لغيره أن يدفع عنه شيئًا، لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر.

فهنالك تُقصر الولاية على الله (لأنها جنسٌ مُعرَّف بلام الجنس، وكما قال الآلوسي الْوَلَايَةُ لِلَّهِ: مفيدة للحصر لتعريف المسند إليه، واقتران الخبر بلام الاختصاص) فلا مخلوق يتولى أمر شيء مهما كان

---

٢١٩ سبأ: ٣٤:٣٧.

صغيرًا أو حقيرًا، ولا مجال للامتحان فقد جاء أمر الله، فلا مولى يُغني عن مولىً شيئًا، وما لهم من دون الله من وليّ (يَستَقِلّ بأمورهم)، ولا شفيع (يعينهم وينصرهم) كما قال مؤمن آل فرعون لفرعون ﴿**يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا** ..﴾ وقال تعالى ﴿**الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ**﴾.

وقال ﴿**يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ**﴾ وقال ﴿**لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ**﴾.

وعندما يُعاين الناس هذه الولاية الحَقّ (الكافر- المشرك- الفاسق- الـمُعرض- الغافل ...) الجميع يُعاين ويتذكر من ربوبيته الحقّ وملكيته الحقّ، ومولويته الحقّ ما يُقَّر بِإِلَـٰهيته الحقّ وحدّه لا شريك له، ومَردُّ كلِّ ذلك إلى صفات الكمال التي يختص بها سبحانه لا إِلَـٰه غيره ولا ربَّ سواه.

ومعلومٌ أنه عند الشدة والاضطرار تهتف الفطرة بالإنسان أن أفْزَع إلى الله ما لك من ملجأ سواه.

فيُضطر الإنسان إلى الخضوع وموالاة الله تعالى موالاةً حَقةً (كاملة) كما في قوله تعال ﴿**دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ وفي قوله ﴿**فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ**﴾ وكذلك فرعون ﴿**حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـه إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ وهنا قال الـمشرك ﴿**يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا**﴾.

ولفظة: "الْحَقّ" قُرئت بالضم فيكون التقدير (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ الحقُّ لله) في قراءة: عمرو- حمزة- الكسائي- خلف.

أما قراءة الجمهور فبالكسر "الحقِّ" فتكون صفة لله. أي الإِلَـٰه الحق لما له من صفات الكمال في الملك والقدرة والعلم والحلم والصبر والحكمة وغيرها، الذي يتولى جميع الأمور بتدبيره وقضائه، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فهو المستحق أن يُتخَّذ وليًّا وحده لا شريك له، كما قال يوسف عليه السلام ﴿**أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**﴾[٢٢٠] وقال تعالى (**قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ** ..﴾[٢٢١].

ولفظة ﴿الْوَلَايَة﴾ قُرئت بالفتح وقُرئت بالكسر.

الْوَلَايَة بالفتح: التولي والنُّصرة – الموالاة والصلة.

الْوِلَايَة بالكسر: السُّلطان والـمُلك والإمارة والـحُكم (ولاية السلطان) والقدرة. هذا من أقوال المفسرين.

---

٢٢٠ يوسف: ١٠١.

٢٢١ الأنعام: ١٤.

﴿**هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا**﴾ ثواب العمل هو فائدته وعائدته على العامل، فمن كان عمله لله كان عائدته السريعة في القلب حياة طيبة (ومنها السكن والطمأنينة والثبات في الأمر واليقين في ولاية الله للمؤمن ودفعه عنه) حتى لو كان عمله سَعْيًا في طلب رِزْقه الحلال، يستعين به في حياته وعبوديته لله، فهو عمل صالح في سبيل الله، وله تأثيره في القلب حياةٌ طيبة، فهو خيرٌ ثوابًا، وكذلك آخره العمل وعاقبة الأمر فوزٌ عظيم ﴿مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا﴾[٢٢٢] فهو خيرٌ عُقبًا.

أما من كان عمله لدنياه وليس الله في باله، فلا يُراعي حلالٌ ولا حُرمةً، ولا صلة له بالله، فقد يجد عائدةَ ﴿**ثوابًا**﴾ عاجلة بسنة الإملاء والاستدراج وغيرها، ويتمتع بها ظاهرًا لكنَّه في حقيقة الأمر معيشته ضنك لأنه مُعْرض عن ذكر الله، وعاقبة أمره أنه يُحشر يوم القيامة أعمى، قال تعالى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[٢٢٣] والذين يتخذونهم أولياء لهم من دون الله من أرباب المصالح الدنيوية (أصحاب الشركات والأموال والمصانع والسلطات وغيرها..) فإن ولايتهم لا تنفع إلا بما شاء الله، ولو نفعت لا تدوم، وإذا جاء أمر الله فهم والعدم سواء.

---

٢٢٢ رواه البخاريّ عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ.

٢٢٣ طه: ١٢٤.

"الخلق بالحق"

تكرر في القرآن التأكيد على خلق السماوات والأرض بالحق، كما تكرر نَفْي خَلْقِهما بَاطلاً أو لعبًا، وجاء التوكيد بالنَّفْي والاستثناء والذي هو آكد أساليب الحصر ﴿**مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾.

قال تعالى ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ*إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ**﴾[٢٢٤].

ذلك السياق عقب ذكر مصارع الغابرين (قَوْمُ لُوط-أَصْحَابُ الأَيْكَةِ-أَصْحَابُ الحِجْر) حيث تلك المصارع دليل دامغ على الحساب والجزاء المستلزم لإرسال الرسل وإنزال الكتب.

وقال تعالى ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ*مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ*إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[٢٢٥].

وقال تعالى ﴿**مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ**﴾[٢٢٦].

خلْقٌ على الإحكام الكامل العادم للنقص والخلل، فما من شيء إلا وهو مخلوق على مقتضى العلم الكامل والحكمة الكاملة، ومن اليسير جدًا أن يستَدِلَّ الإنسان بذلك على عظمة الخالق وصفاته وكمالاته، وعلى حَقِّيته في أن يُعْبد وحدَه لا شريك له مما يستلزم الرِّسالات والنبوات ثم البعث للحساب والجزاء، وسأترك البيان والتفصيل لابْنُ الْقَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ ففي كلامه كفاية:

قال: فتأمل أسرار كلام الرب تعالى وما تضمنته آيات الكتاب المجيد من الحكمة البالغة الشاهدة بأنه كلام رب العالمين، والشاهدة لرسوله بأنه الصادق الأمين، وهذا كله من مقتضى حكمته وحمده تعالى، وهو معنى كونه خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق، ولم يخلق ذلك باطلا، بل خلقه خلقا صادرا عن الحق، آيلاً إلى الحق، مشتملا على الحق، فالحق سابق لخلقها مقارن له غاية له، ولهذا أتى بالباء الدالة على هذا المعنى دون اللام المفيدة لمعنى الغاية وحدها، فالباء مفيدة معنى اشتمالها على الحق السابق والمقارن والغاية: فالحق السابق صدور ذلك عن علمه وحكمته، فمصدر خلقه تعالى وأمره عن كمال علمه وحكمته، وبكمال هاتين الصفتين يكون المفعول الصادر عن الموصوف بهما حكمه كله ومصلحة وحقا، ولهذا قال تعالى ﴿**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**﴾ [٢٢٧] فأخبر أن مصدر التلقي عن علم المتكلم وحكمته، وما كان كذلك كان صدقا وعدلا وهدى وإرشادا، وكذلك قالت

---

[٢٢٤] الحجر: ٨٥-٨٦.

[٢٢٥] الدخان: ٣٨:٤٠.

[٢٢٦] الأحقاف: ٣.

[٢٢٧] النمل: ٦.

الملائكة لامرأة إبراهيم حين قالت ﴿**أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخًا**﴾ ﴿**عَجُوزٌ عَقِيمٌ**﴾ ﴿**قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ**﴾ وهذا راجع إلى قوله وخلقه وهو خلق الولد لها على الكبر.

وأما مقارنة الحق لهذه المخلوقات: فهو ما اشتملت من الحكم والمصالح والمنافع والآيات الدالة للعباد على الله ووحدانيته وصفاته، وصدق رسله، وأن لقاءه حق لا ريب فيه. ومن نظر في الموجودات ببصيرة قلبه رآها كالأشخاص الشاهدة الناطقة بذلك، بل شهادتها أتم من شهادة الخبر المجرد لأنها شهادة حال لا يقبل كذبًا. إلى أن قال:

وأما الحق الذي هو غاية خلقها: فهو غاية تُراد من العباد، وغاية تُراد بهم، فالتي تراد منهم: أن يعرفوا الله تعالى وصفات كماله عز وجل، وأن يعبدوه لا يشركوا به شيئا، فيكون هو وحده إِلَـٰـهَهم ومعبودهم ومطاعهم ومحبوبهم. قال تعالى ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ فأخبر أنه خلق العالم ليعرف عباده كمال قدرته وإحاطة علمه، وذلك يستلزم معرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيده.

وقال تعالى ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ فهذه الغاية هي المرادة من العباد، وهي أن يعرفوا ربهم ويعبدوه وحده.

وأما الغاية المرادة بهم: فهي الجزاء بالعدل والفضل، والثواب والعقاب. قال تعالى ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**﴾ قال تعالى ﴿**إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى**﴾ وقال تعالى ﴿**لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ**﴾ قال تعالى ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ٤**﴾ فتأمل الآن كيف أشتمل خلق السموات والأرض وما بينهما على الحق أولا وآخرا ووسطا وأنها خلقت بالحق وللحق وشاهدة بالحق. وقد أنكر تعالى على من زعم خلاف ذلك فقال ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ١١٥ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ١١٦**﴾.

قلتُ: نظرة سريعة إلى ما ظهر في المخلوقات في عصرنا من العلوم والمعارف والحكمة مما يُدَّرس في المعاهد والجامعات في العالم من علوم الذَرَّة والكيمياء والفيزياء والإلكترونيات والفَلَك والطب

والصناعة وعلوم البحار والمواصلات والاتصالات وغيرها تثبت عظمة الله وقدرته وعلمه وكمالاته وحقّيته وحده في العبادة، كما سبق وبيّناه في الإيلاج والتسخير، قال تعالى ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[٢٢٨]، بل جدول مندليف للعناصر يُبين لكل عاقل أنها لم تُخلق إلا بالحق كما سبق في كلام ابْنُ الْقَيِّم، فأين يذهب الـــمُبطلون من منكري الرسالات والبعث إلا إلى الخلود في الجحيم!

كما جاءت الآيات بنفيّ خلق السَّماوات والأرض باطلاً، وأن هذا المعنى يصل إليه أولوا الألباب بمجرد التفكير:

قال تعالى ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ٢٧ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ٢٨ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ٢٩**﴾[٢٢٩] فتدبر الكلام الآتي لابْنُ الْقَيِّم ولا تهمل فيه كلمة:

يقول ابْنُ الْقَيِّم: وتأمل كيف لما زعم أعداؤه الكافرون أنه لم يأمرهم و لم ينههم على ألسنة رسله، وأنه لا يبعثهم (للحساب) للثواب والعقاب كيف كان هذا الزعم منهم قولا بأن خلق السموات والأرض باطل، فقال تعالى ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ**﴾ فلما ظن أعداؤه أنه لم يرسل إليهم رسولا، و لم يجعل لهم أجلا للقائه، كان ذلك ظنّا منهم أنه خلق خلقه باطلا، ولهذا أثنى تعالى على عباده المتفكرين في مخلوقاته بأنهم أوصلهم فكرهم فيها إلى شهادتهم بأنه تعالى لم يخلقها باطلا، وأنهم لما علموا ذلك وشهدوا به، علموا أن خلقها يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه، فذكروا في دعائهم هذين الأمرين ﴿**رَبَّنَآ مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ* رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾ فلما علموا أن خَلْقَ السموات والأرض يستلزم الثواب والعقاب، تعوذُّوا بالله من عقابه، ثم ذكروا الإيمان الذي أوقعهم عليه فكرهم في خلق السموات والأرض، فقالوا ﴿**رَّبَّنَا إِنَّنَآ سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا**﴾ فكانت ثمرة فكرهم في خلق السموات والأرض: الإقرار به تعالى: بوحدانيته وبدينه وبرسله وبثوابه وعقابه، فتوسلوا إليه بإيمانهم الذي هو من أعظم فضله عليهم إلى مغفرة ذنوبهم وتكفير سيئاتهم وإدخالهم مع الإبرار إلى جنته التي وعدهموها، وذلك تمام نعمته عليهم، فتوسلوا بإنعامه عليهم أولا إلى إنعامه عليهم آخرا، وتلك وسيلة بطاعته إلى كرامته ... إلى أن

---

٢٢٨ يونس: ٥.

٢٢٩ ص: ٢٧:٢٩.

قال: فأثمر لهم فكرهم الصحيح في خلق السموات والأرض أنه لم يخلقها باطلا، وأثمر لهم الإيمان بالله ورسوله ودينه وشرعه وثوابه وعقابه والتوسل إليه بطاعته والإيمان به[٢٣٠]. أ.هـ

قلت: ولقد بيَّن الله موقف المنكرين للرسالات فقال تعالى ﴿**وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ** ..﴾[٢٣١] فتأمل ذلك في ضوء كلام ابْنُ الْقَيِّم.

أما المنكرون لليوم الآخر (وهو الأصل الذي استبعدوا به دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿**أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا** ..﴾﴿**هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ** ..﴾) بعد ما يشاهدون ويعلمون من الآيات والبراهين والبيِّنات المبيِّنات لحقِّيّة الله كما مَرَّ بنا في أطوار خلق الجنين، وإحياء الأرض بعد موتها بإنزال الماء، واهتزازها وربُوِّها وانباتها من كل زوج بهيج، والرِّزْق الذي لا ينقطع ولا يُحصى من السماء والأرض، وملك السَّمع والأبصار، وإخراج الحيّ من الميت وإخراج الميت من الحي، وتدبير الأمر في السماوات والأرض، وإيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، وتسخير الشمس والقمر لأجل وإلى أجل مسمَّى، -وكل هذه أمثلة فقط- فهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة جعلوا أنفسهم تحت طائلة أشد العقوبات في دينهم بعدل الله، كما يأتي، كما وصفهم ربهم بأن لهم مَثل السَّوْء، وهو النهاية في التنقُّص والعيب والذم، إذ انتقصوا ربهم وطعنوا في كمالاته التي يعرفونها وقد فُطروا عليها مع أنه تعالى له المثل الأعلى في السماوات والأرض:

قال تعالي ﴿**لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[٢٣٢] والمثل الأعلى هو الوصف الأعلى وهو كمال الله كما جاءت به الرُّسُل عليهم السلام، وهو الذي يتزل على القلب السليم فيستقر فيه، على ما فُطر عليه من معرفة الله ومحبته وتوحيده والشيء يُزاد بمثله ويُحفظ بانتفاء ضدِّه، فيُثمر في القلب إيمانًا ومحبة وتعظيمًا وإخباتًا وإجلالاً وإكرامًا ﴿**كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ* تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ** ..﴾، ثم إذا تكلم الإنسان ودعا إلى الله كان ذلك أيضًا تابعًا وداخلاً في المثل الأعلى كما فَصَّله ابْنُ الْقَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في مختصر الصواعق، وسيكون الكلام عليه مُفصلاً في شرح أسمائه تعالى (العليّ- الأعلى- المتعال).

قال تعالى ﴿**إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ٤ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ**﴾.

العقوبة: ﴿**زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ**﴾

---

٢٣٠ بدائع الفوائد ١٦٦-١٦٧.

٢٣١ الأنعام: ٩١.

٢٣٢ النحل:٦٠.

قال ابْنُ الْقَيِّم: فتزيينه سبحانه للعبد عمله السيئ عقوبة منه له على إعراضه عن توحيده وعبوديته، وإيثار سيء العمل على حَسَنه، فإنه لا بد أن يعرفه سبحانه السيءَ من الحسن، فإذا آثر القبيح واختاره وأحبه ورضيه لنفسه، زينه سبحانه له وأعماه عن رؤية قبحه بعد أن رآه قبيحا، وكل ظالم وفاجر وفاسق لا بد أن يريه الله تعالى ظلمه وفجوره وفسقه قبيحا، فإذا تمادى عليه؛ ارتفعت رؤية قبحه من قلبه فربما رآه حسنا عقوبة له، فإنه إنما يكشف له عن قبحه بالنور الذي في قلبه وهو حجة الله عليه، فإذا تمادى في غيه وظلمه، ذهب ذلك النور، فلم ير قبحه في ظلمات الجهل والفسوق والظلم، ومع هذا فحجة الله قائمة عليه بالرسالة وبالتعريف الأول، فتزيين الرب تعالى عدل، وعقوبته حكمة، وتزيين الشيطان إغواء وظلم وهو السبب الخارج عن العبد، والسبب الداخل فيه حبه وبغضه وإعراضه، والرب سبحانه خالق الجميع، والجميع واقع بمشيئته وقدرته، ولو شاء لهدى خلقه أجمعين[٢٣٣]. أ.هـ

﴿**فَهُمْ يَعْمَهُونَ**﴾ جملة اسمية تدل على تمكن العمه منهم، وأفادت صيغة المضارع أن العَمَه متجدد مستمر فيهم، أي فهم لا يرجعون إلى اهتداء لانهم يحسبون أنهم على صواب، طالما أنهم لا يؤمنون بالآخرة.

(لا يؤمنون) بصيغة المضارع الذي يَدُل على التجدد والاستمرار، والحكم مُرتب على هذا منوط به، فإذا هتفت به الفطرة فتاب ونزع واستغفر، رفع عنه الحكم، وزالت عنه العقوبة. راجع التحرير والتنوير.

أما العْمه: فهو ضلال بلا اهتداء، وحيرة وقلة اهتداء فهو يتردد لا يدري أين يتوجه.

قال تعالى ﴿**وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا*وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا**﴾[٢٣٤].

يقول ابْنُ الْقَيِّم: والمعنى جعلنا بين القرآن إذا قرأته، وبينهم حجابا يحول بينهم وبَين فهمه وتدبره والإيمان به، ويُبينه قوله ﴿**وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا**﴾ وهذه الثلاثة هي الثلاثة المذكورة في قوله ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن**

---

٢٣٣ شفاء العليل ١٠٣، الضور المنير ٧٤-٧٥.

٢٣٤ الإسراء: ٤٥-٤٦.

بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فأخبر سبحانه أن ذلك جعله، فالحجاب يمنع رؤية الحق، والأكِنَّة تمنع من فَهْمه، والوَقْر يمنع من سماعه[٢٣٥].

وقال: فإذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد وتجريد المتابعة ولى أصحابها على أدبارهم نفوراً[٢٣٦].

قال تعالى ﴿**وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾[٢٣٧].

الاشمئزاز: الإنقباض وشدة الكراهية والنفور بسبب ما فيه من إنكار الآخرة فلا يطيق القلب أن يدخل فيه شيء من التوحيد، لكن يقبل مثل ما فيه من الشرك.

الاستبشار: شدة الفرح بما يظهر أثره على بشرة الوجه.

قال تعالى ﴿**فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ**﴾[٢٣٨].

وقال تعالى ﴿**وَإِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالأَخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ**﴾[٢٣٩].

أما الذين يؤمنون بالآخرة فهم الذين يقبلون الحق كتاباً وسنة.

قال تعالى ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ**﴾[٢٤٠].

ولما ذَكَر الله تعالى من آياته وبراهينه في سورة النمل: ذَيَّل كل آية بقوله تعالى ﴿**أَإِلَـهٌ مَّعَ اللَّهِ**﴾ ثم بيَّن أن آياته وحججه لا تخفى على عاقل، ولكن هؤلاء قَلَّ علمهم بتفاصيل الآخرة، وضعف ولم يكن يقينًا، ولم يكن علمًا واصلًا إلى القلب بل ليس عندهم من العلم شيء، بل هم في شكٍ منها، والعلم بجميع مراتبه لا يجامع الشك، بل قد عميت عنها بصائرهم، ولم يكن في قلوبهم من وقوعها ولا احتمال بل أنكروها واستبعدوها قائلين **أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ** ...

قال تعالى ﴿**بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ**﴾[٢٤١]. راجع تفسير السعدي والآلوسي لهذه الآيات.

قال تعالى ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ١١٢وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ**﴾[٢٤٢].

---

٢٣٥ شفاء العليل: ٩٤، الضوء المنير٤/١٠٢.

٢٣٦ إغاثة اللهفان: ١٣، الضوء المنير٤/١٠٢.

٢٣٧ الزمر: ٤٥.

٢٣٨ النحل: ٢٢.

٢٣٩ المؤمنون: ٧٤.

٢٤٠ الأنعام: ٩٢.

٢٤١ النمل: ٦٦.

يقول ابْنُ الْقَيِّم: فذكر سبحانه أنهم يستعينون على مخالفة أمر الأنبياء، بما يزخرفه بعضهم لبعض من القول، فيغتر به الأغمار وضعفاء العقول، فذكر السبب الفاعل وهو ما يغرّ السامع من زخرف القول، فلما أصغت إليه ورضيته، اقترفت ما تدعو إليه من الباطل قولا وعملا[٢٤٣].

وقال: أكثر الناس ضعفاء العقول يقبلون الشيء بلفظ ويردونه بعينه بلفظ آخر، قال الله تعالى ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا**﴾ فسمَّاه زُخرفًا وهو القول الباطل، لأن صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع، ويلقيه الى سمع المغرور فيغترَّ به[٢٤٤].

قال الشيخ السعدي: يُزخرفون له (الباطل) العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليغتر به السفهاء، وينقاد له الأغبياء، الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات المموهة، أما أهل الإيمان بالآخرة، وأولو العقول الوافية والألباب الرَّزِينة، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات، ولا تخلبهم تلك التمويهات، بل همتهم مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعاة، فإن كانت حقا قبلوها، وانقادوا لها، ولو كُسيت عبارات رَديَّة، وألفاظا غير وافية، وإن كانت باطلا ردوها على من قالها، كائنًا من كان، ولو أُلبست من العبارات المستحسنة، ما هو أرق من الحرير[٢٤٥].

قلتُ: فَأفْئدةُ الذين لا يؤمنون بالآخرة تميل ميلاً قويًا سريعًا إلى الباطل الـــمُزخرف، فتقبله وتعمل به بهمة ونشاط، وذلك عقوبة من الله لهم كما سبق في آيتي سورتي النمل والإسراء، وذلك من جملة الحِكَم والغايات المقصودة من جعْل أعداء للأنبياء من الإنس والجن يتعاونون في الغرور والباطل، ومن جملة الحِكَم أيضًا انكشاف أمرِ مَنْ لا يؤمن بالآخرة أمام نفسه على الأقل، وخذ مثالاً على ذلك مما يحدث في عصرنا، من دعاة العلمانية (اللَّادينية) من مفكريها وإعلامييها ومنظِّريها وكُتَّابها، واجتهادهم في زخرف القول، حتى استمع إليهم ملايين ممن ينتسبون ظاهرًا إلى الإسلام، فاستمعوا إلى مصادمة نُصوص الكتاب والسُّنَّة، فَصَغَت قلوبهم إليه حتى استجابوا لداعية الخروج على الهوية الإسلامية لإحلال محلها الهوية الوضعية، أو النصرانية أو غيرها، أنا أنصح كلا منهم أن يسأل نفسه: هل يؤمن أنه سيقف بين يدي الملك ليسأله عن ذلك !؟ هل يعلم أن من دفع شيئًا مما أنزل الله فقد خرج عن

---

٢٤٢ الأنعام: ١١٢-١١٣.

٢٤٣ مختصر الصواعق المرسلة: ج١ صـــ ٨٧.

٢٤٤ الجواب الكافي: ١٣٤.

٢٤٥ باختصار من تفسير السعدي.

الملة بإجماع المسلمين!؟ هل يعلم أن من آمن ببعض الكتاب (كالشعائر) وكفر ببعض (كالشرائع) أنه يُرد إلى أشد العذاب!؟.

هل يعلم أن الإسلام معناه الاستسلام لله لا لغيره!؟ فكيف يرد عليه شيئًا من شريعته؟

ألا فاعلم أيها الزاعم الإسلام أن الله هو الحقّ، وأن الساعة حقّ، وأن لقاءه حقّ، وأن وعْدَه حقّ، وأن جنته حقّ، وأن ناره حقّ، وأن شرعه ودينه حقّ، وأن كُلَّ ما يُنسب إليه، وأن أنبياءه حقّ، وأن محمدًا حقّ صلى الله عليه جميعًا وسلم. واعلم أن صَبْغَةً واحدة في نار جهنم تُنسي أَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا أنه ذاق نعيمًا قط[٢٤٦]، فالتوبة التوبة يا عباد الله.

٢٤٦ كما في الحديث الذي رواه مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك.

دعاء الله تعالى باسمه الحقّ

كما في جميع الأسماء الحسنى، يكون دعاء الله بها ثلاثة أنواع:

١- دعاء الثناء: كما في الحديث ﴿وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ حَقٌّ﴾[٢٤٧].

وكل ما في هذا الكتاب هو من دعاء الثناء.

٢- دعاء الـــمَسْألة: كما في قوله تعالى ﴿**رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ**﴾ وكما في الحديث ﴿اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٢٤٨].

٣- دعاء العبادة:

أ. بذل الجُهد واستفراغ الوِسع في معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله وفي معرفة الهُدى ودين الحق، وذلك يستلزم تمييز أهل العلم الصادقين عن الأدعياء والمنافقين الذين يستعملون آلة الدِّين للدنيا، فالحذر الحذّر منهم، ولا تأخذ شيئًا من الدين إلا بالدليل ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

ب. فإذا تَبيّن لك الحق فلا تتردد في أخذه، بل خُذه بقوة، وتواضع له ولا تستكبر، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ﴾[٢٤٩]. واحرص على التواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

يقول ابْنُ الْقَيِّم رحمه الله: كما أن من تواضع لله رفعه فكذلك من تَكَبَّر عن الانقياد للحق أذله الله ووضعه وصغَّره وحقَّره. ومن تكبَّر عن الانقياد للحق -ولو جاءه على يد صغير، أو من يُبغضه أو يُعاديه- فإنما تكبره على الله، فإن الله هو الحق وكلامه حق، ودينه حق، والحق صِفَته ومنه وله، فإذا ردَّه العبد وتكبَّر عن قبوله: فإنما رَدَّ على الله وتكبَّر عَلَيْه، والله أعلم[٢٥٠].

---

٢٤٧ رواه البخاريّ من حديث ابْنَ عَبَّاس بَاب التَّهَجُّد بِاللَّيْلِ.

٢٤٨ رواه مسلم بَاب الدُّعَاء فِي صَلَاة اللَّيْل وَقِيَامه.

٢٤٩ رواه مسلم بَاب تَحْرِيم الْكِبْر وَبَيَانه.

٢٥٠ مدارج السالكين: ج٢ صـــ ٣٣٣.

ج. فإذا كنت على الحق فالزمه والزم التوكل وأبشر وأَمِّل ما يسرُّك. قال تعالى ﴿**فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ**﴾[٢٥١].

يقول ابْنُ الْقَيِّم رحمه الله: إن كَوْن العبد على الحق يقتضي تحقيق مقام التوكل على الله والاكتفاء به، والإيواء إلى ركنه الشديد، فإن الله هو الحقّ وهو وَلي الحق، وناصره ومؤيده، وكافي من قام به، فما لصاحب الحق ألا يتوكل عليه؟ وكيف يخاف وهو على الحق؟ كما قالت الرسل لقومهم ﴿**وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَآ آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾[٢٥٢].

د. لا تَدَّخر وُسْعًا في نُصْره الحق فإن وَعْدَ الله حقّ، قال تعالى ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ**﴾[٢٥٣] وقال ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا .. الآية**﴾[٢٥٤] وقال ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا .. الآية**﴾[٢٥٥] وقال ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ...**﴾[٢٥٦] وقال ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ...**﴾[٢٥٧] وقال ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ...**﴾[٢٥٨] وقال ﴿**وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٢٥٩] وقال ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[٢٦٠] وكل هذا الوَعْد حقّ، وما أحوج الأُمَّة الآن إليه في آحادها ومجموعها، وهذا يستلزم تصحيح الإيمان وتجديده، وبَذْل الجهد في تحقيق ذلك، ونزع الخوف من الظَلمة وأهل الباطل وأنصارهم، وخذ مثالاً بقضية العصر كما يلي.

---

٢٥١ النمل: ٧٩.

٢٥٢ طريق الهجرين: ٤٦٣.

٢٥٣ الحج: ٤٠.

٢٥٤ التوبة: ١١١.

٢٥٥ النور: ٥٥.

٢٥٦ الحج: ٣٨.

٢٥٧ غافر: ٦٠.

٢٥٨ البقرة: ١٥٢.

٢٥٩ آل عمران: ٦٨.

٢٦٠ النور: ٦٣.

هـــ. كان الحُكم بما أنزل الله سائدًا في بلاد المسلمين فكانت الهوية إسلامية والشريعة نافذة، والمسلمون مستسلمون لأحكامها، فجهد الأعداء في الداخل والخارج بالغزو الثقافي والغزو الفكري والغزو العسكري، حتى عُطّلت الشرائع، ووُضِعت القوانين الوضعية بديلاً عنها، فقام الأئمة والعلماء والدُّعاة من أهل الحق (وهم قِلّة) بواجب البيان، والنصوص وحكايات الإجماع متوافرة على أن هذا التبديل مُخرج عن الملّة، لكن شغَّب وشوش ولغا عليها فريقان من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا (ومنهم مشاهير ممن له جماهير عريضه ممن تشرب قلوبهم زُخرَف القَوْلِ فترضاه وتعمل به في مناوأة أهل الحقّ) وهما: فريق: الإرجاء الـــمُعاصر (الذين يقولون بقول أهل السُّنة في الإيمان، أمَّا في الكفر فلا يكفر عندهم رجل نطق الشهادتين، مهما ارتكب من ناقض) وفريق: من أصحاب القصد الفاسد، وهم الذين يُريدون الدنيا ويُقدِّمونها على الدين فلا يتكلمون بكلمة حق تُسخِّط عليهم الطَّواغيت والظلمة حتى لا تتعرض دنياهم لضرر أو خَطَر، لكنهم يجتهدون في الظهور لجماهيرهم على أنهم دُعاة حق ونُصرة للدين، فهم أقرب للنفاق إن لم يكونوا مُنافقين، وشُبْهتهم الأولى في التشغيب هي قول ابْنُ عَبَّاس وغيره من السَّلَف: "كُفْرٌ دُونَ كُفرٍ".

وهذا قولٌ حق لكن يُنزّلونه على غير موضعه، على التبديل الـــمُجمع على أنه كفرٌ أكبر، وإنما موضع هذه المقولة في القاضي الذي يتلاعب في تحقيق المناط فُيبرِّيء المتهم من تهمته مع ثبوتها عنده بالْبَيِّنَة فيحكم بالبراءة لرغبة أو رهبة أو رشوة أو قرابة أو هوىً أو غير ذلك، فهذا القاضي حَكَمَ بغير ما أنزل الله لكنَّه لم يَرُدَّ حُكم الله ولم يدفع شيئًا مما أنزل الله، فكفره بذلك كفرٌ دون كفر ليس كفرًا مُخرجًا عن الملّة.

فهؤلاء لبّسوا على العامة دينهم بجهل أو بسوء قصد، ولم يكتفوا بذلك، بل صَوَّبوا سِهَامّهُم إلى أهل الحق ووسموهم بالخوارج وغُلاة التكفير، وذلك إرضاءً أو عَمَالة للطواغيت، بأجر وبدون أجر.

فيا دُعاة الحقِّ: هذه شريعة ربكم مُهدرة، والهوية الإسلامية مرفوضة، وقد رأيتم من يُسَوِّغ ذلك باسم الدِّين، فقد وجب عليكم دراسة هذه القضية بِرُمَّتها حتى تستيقنوا بالحق لتدافعوا عنه وتقوموا بواجبكم في دعاء الله تعالى باسمه الحقّ.

وإن أردتم مرجعًا قويًا سهلاً جامعًا فارجعوا إلى فتاوى اللجنة الدائمة، والشيخ ابن عثيمين والشيخ بكر أبو زيد رحمهما الله تعالى، ثمَّ الأشرطة الجامعة الماتعة لشيخنا: د. محمد عبد المقصود والـمسمَّاة بتصحيح المفاهيم، والرِّسالة المتينه "تحكيم الشريعة وصلته بأصل الدين" للدكتور صلاح الصاوي الأستاذ بجامعات الأزهر وأمّ القُرى والجامعة الإسلامية.

وأختم فأقول: قال تعالى ﴿**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[٢٦١] فإذا كان الـمُسلم لا يعرف معنى الطَّاغُوت فكيف يكون موقفه!؟ بل كيف يصح منه كفرٌ بالطَّاغُوت!؟ وكيف يصح له إيمان!؟ أليس هذا خطرًا على المسلم!؟ لا سيما والمنافقون مُتربصون به حتى لا يفيق، بل يظل على ما هو عليه من أن الطَّاغُوت هو إبليس، ويُغلق الباب على هذا وينتهي الأمر، فما من مسلم إلاَّ وهو يكفر بإبليس، فلا إشكال عنده في دفع شرائع الهَوية الإسلامية ومناصرة من فعل ذلك. ويستدل المنافقون بقول عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضيّ الله عنه: "الطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ". وهو قولٌ حقّ، لكن انظر إلى تفسير مُجاهد له، وقد قال عنه ابن تيمية: قَالَ الثَّوْرِيُّ: "إذَا جَاءَك التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُك بِهِ"[٢٦٢]. ومُجَاهِد رحمه الله من أَئِمَّة وأركان التابعين.

روى الطبريّ عن مُجَاهِد مثل قول عُمَر رضيّ الله عنه وزاد: الطاغوت: الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه.

وقالَ جابرٌ: كَانَتِ الطَّوَاغِيتُ الَّتِى يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهَا: فِى جُهَيْنَةَ وَاحِدٌ، وَفِى أَسْلَمَ وَاحِدٌ، وَفِى كُلِّ حَىٍّ وَاحِدٌ؛ كُهَّانٌ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ[٢٦٣].

ويُعلق ابن كثير على قول عُمَر رضيّ الله عنه فيقول: ومعنى قوله في الطاغوت: أنه الشيطان قوي جدًّا، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية، من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها.[٢٦٤] أ.هـ

---

٢٦١ البقرة: ٢٥٦.

٢٦٢ تكرر هذا النقل في مجموع الفتاوى: ج٣ ص٥٥، ج٥ ص١٥٩، ج١٣ ص٢٨٥، ج١٤ ص٣٩٦، ج١٥ ص٢٠١، وغير ذلك.

٢٦٣ كما في صحيح البخاريّ، بَاب قَوْلِهِ {وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ الْغَائِطِ}.

٢٦٤ تفسير كثير: ج١ صـ ٣١٢.

وقال ابن كثير في قوله تعالى ﴿**يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ** ...﴾[٢٦٥]: وَالْآيَةُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَإِنَّهَا ذَامَّةٌ لِمَنْ عَدَلَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَتَحَاكَمُوا إِلَى مَا سِوَاهُمَا مِنَ الْبَاطِلِ وهو المراد بالطاغوت هنا. انظر التفسير.

وقال الشيخ السعدي: ﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ**﴾: وهو كل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت. والحال أنهم ﴿**قد أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ**﴾ فكيف يجتمع هذا والإيمان؟ فإن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور، فمَنْ زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله، فهو كاذب في ذلك. وهذا من إضلال الشيطان إياهم، ولهذا قال: ﴿**وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالا بَعِيدًا**﴾ أ.هـــ. انظر التفسير.

وإليك طائفة من أقوال أهل العلم بالتفسير في هذه الآيات حتى تكون على بينة:

قال ابْنُ الْقَيِّم: ثم أخبر سبحانه أن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فقد حكم الطاغوت وتحاكم إليه، والطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حدّه من معبود أو متبوع أو مُطاع. فطاغوت كل قوم: من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، ومن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت ومن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته.أ.هـــ[٢٦٦]

وفتاوى اللجنة الدائمة والشيخ ابن عثيمين وغيره، في منتهى الوضوح والصراحة، أن التحاكم إلى الطاغوت هو التحاكم إلى ما يخالف حُكم الله وحُكم رسوله.

فمن التواصي بالحقّ أنْ:

أوصيك أيها المسلم أن تُراجع فهمك واعتقادك وإيمانك قبل أن يأتيك الموت وأنت على باطل، ولا ينفع الندم.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

٢٦٥ النساء: ٦٠.

٢٦٦ إعلام الموقعين.